الفصل الثاني

حركةُ حاضرٍ

الدور التثقيفى للمدرسة

مقدمة

الاختلاف حول المصطلح قضية شهيرة ومتكررة فى مجال العلوم الإنسانية لأسباب معروفة. ومصطلح (الثقافة) واحد من هذه المصطلحات التى تتعدد حولها وجهات النظر وتختلف، مما يمكن معه أن تعرض هذه الآراء وتناقش ويقارن بينها ويوازن، إذا كان الأمر أمر (كتاب) تتسع صفحاته لمثل هذا.

أما وأننا نشير إلى هذه القضية فى دراسة محدودة الصفحات، فقد يكون من العسير القيام بمثل هذا، خاصة وأن هذه الدراسة تقدم ضمن مجموعة دراسات متعددة تدور فى مجال (الثقافة)، مما يجعل من المحتمل، إن لم يكن من المرجح، أن تتكرر مناقشة مسألة المصطلح فى عدة دراسات.

وعلى هذا فقد آثرنا هنا أن ننتهى إلى مفهوم، لا نزعم أنه هو وحده المصور للحقيقة، وإنما فقط ننبه إلى أن هذا هو المفهوم الذى ستقوم عليه الدراسة الحالية مرددين قول فقهائنا الأجلاء: "رأينا هذا صواب يحتمل الخطأ"، دون أن نرى الشق الثانى من هذه المقولة الشهيرة، وهى أن رأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب!!

أما هذا المفهوم فهو الذى ينظر إلى الثقافة على أنها (مكتسبات الجهد الإنسانى سواء كانت مادية أو معنوية)، وبالتالى، فإذا كان هذا المفهوم يعنى المعارف والعلوم المختلفة، فإنه يعنى كذلك، النظم الاجتماعية المتعددة، وما يرتبط بها من عادات وتقاليد وتشريعات وأنساق قيم وأعراف، كما يعنى الأجهزة والمعدات التكنولوجية المختلفة التى اخترعها الإنسان ليواجه بها مشكلات الحياة ويتعامل بها مع ظواهر الكون.

ومن الجدير بالذكر أن هذا المفهوم يشيع بصفة خاصة فى الدراسات الأنثروبولوجية، كما يشيع كذلك فى الدراسات التربوية.

الطبيعة الثقافية للإنسان:

للإنسان ميلادين: أولهما، معلوم اللحظة، عندما يخرج من بطن أمه وليدا، له كيانه البيولوجى المعروف، أما ثانيهما فهو غير معلوم اللحظة، وهو، عندما تبدأ (شخصيته) فى التكون والنشوء، وذلك أننا لا نجاوز الحقيقة إذا قلنا أن للإنسان وجودين: وجود فيزيقى يتمثل فى الجسد المرئى الحى الذى يتكون من أجهزة وأعضاء تسرى فيها دماء الحياة فيتحرك ويسمع ويلمس ويتكلم ويأكل ويشرب وينام.. إلى غير هذا وذاك من وظائف (حيوية)، ووجود آخر، وجود نفسى ثقافى يتمثل فى (شخصية) بعينها تتميز بطريقة تفكيرها ومعارفها وتقاليدها واتجاهاتها وقيمها ومهاراتها وقدراتها.. إلخ.

وعلى الرغم مما قد نقول به من اختلافات بين هذا وذاك من بنى البشر فى لون البشرة وتفاصيل شكل العينين والأنف والشعر.. إلخ، إلا أننا نستطيع أن نقول أنه لا اختلاف بين الجمهرة الكبرى من البشر فى التكوين الداخلى للجسم وأجهزته ووظائفها المتعددة. بل إننا نستطيع أن نشير إلى تشابه بعض هذه الأجهزة ومثيلات لها فى كيانات حية أخرى غير بشرية.

لكن هذا أمر غير قائم بالنسبة للشخصية الثقافية للإنسان، بل هى التى تميز هذا الفرد عن ذاك، وترسم لكل منا قواعد التعامل مع الآخر، إذا كان على وعى كاف بأبعادها المختلفة وجوانبها المتعددة.

فإذا ما تساءلنا عما يجعلنا نشير إلى هذا الإنسان بأنه (إنجليزى)، وأن ذاك (عربى)، وهذا (فرنسى)، وذاك (أمريكى)، فإن الذى يجعلنا نقوم بهذا التمييز، ليس هو الشكل الفيزيقى وإنما هو ما يحمله كل من هؤلاء من (ثقافة).

وهكذا قيل بحق، أن الإنسان إذا كانت له طبيعته البيولوجية، فله أيضا طبيعته الثقافية التى تجعله (إنسانا) بمعنى الكلمة، وتفرق بينه وبين غيره من الكائنات الحية الأخرى، خاصة إذا أضفنا إلى هذا ما يتميز به هذا (الطبع الثقافى) من (تراكمية) تتيح

للإنسان فرصة أن يبدأ يومه من حيث انتهى أمسه، ويبدأ غده من حيث انتهى يومه فيسير إلى أمام وتتطور أفكاره ومعارفه وأساليب تعامله، وبذلك استطاع الإنسان وحده دون سائر خلق الله أن ينشئ الحضارة.

ومما يستطيع الإنسان أن يلاحظه فى شأن نفسه، أنه أكثر الموجودات عجزا ساعة المنشأ، بحيث يستطيع مواصلة الحياة فقط، إذا توافر شرط أساسى، وهو الاعتماد الكلى فترة طويلة على آخرين من جيل الكبار يعيشون معه ويمدونه بأسباب الحياة.

وحكمة الجانب الأول - وهو ضرورة الاعتماد على آخرين فى بدء المنشأ - ترسى جذور التفاعل الاجتماعى، وهو (الحضّانة الطبيعية) للثقافة. وحكمة الجانب الثانى - طول المدة اللازمة للإعداد والتنشئة - أن يحصل الإنسان على أكبر كم ممكن من الثقافة التى أنتجها سابقوه ومعاصروه، وهذا وذاك مما يزيد الثقافة اتساعا وثراء وتنوعا لا حصر له.

العروة الوثقى بين الثقافة والتعليم:

ولعلنا إذا استعدنا مرة أخرى المفهوم الذى قدمناه فى مستهل الدراسة للثقافة، وكيف أنها "مكتسبات الإنسان"، فإن هذا المفهوم يتضمن بالضرورة شرطا لا استمرار للثقافة إلا به، ألا وهو التعليم، فما هو فطرى، لا حاجة إلى تعلمه، فنحن لا نتعلم النوم، ولا الأكل، ولكننا نخترع نظما وأساليبا وأجهزة نحتاجها لممارسة هذا وذاك وغيره، هذه المخترعات، هى التى نتعلمها ونعلمها، لأنها مكتسبة.

من أجل هذا، فعلى الرغم من أن مفكرا كبيرا مثل أفلاطون قد احتفى بالتعليم احتفاء كبيرا لم يسبقه إليه أحد، إلى الدرجة التى جعلته يضعه أساسا لإعادة تكوين وتشكيل المجتمع كما ينبغى أن يكون، نقول، على الرغم من هذا، فإنه قد وجه إلى التعليم طعنة نجلاء، عندما حاول أن يؤكد أن المعرفة فطرية، وبالتالى، فإن هذه المهمة - التعليم - تقف عند حد "الكشف" و"التذكير".

وعندما يقول سبحانه عز من قائل أنه قد أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئا،

وجعل لنا السمع والأبصار والأفئدة، فإنما يؤكد بذلك فرص الكسب التى لا حدود لها لما يمكن أن يحصله الإنسان باستخدام حواسه المختلفة.

والفيلسوف الأمريكى المعروف (جون ديوى) له تحليل طريف فى هذا الشأن، ينبهنا من خلاله إلى هذا التشابه العجيب بين كلمات إنجليزية ثلاث -Community Communication-Common جماعة، وعام، مشترك، واتصال والاشتراك هنا هو فى الحروف الأربعة الأولى:

فمجرد التجمع الإنسانى، لا يمكن أن يعد مجتمعا أو جماعة إلا إذا كان هناك ما هو "مشترك" و"عام" بين أفراد هذا التجمع. ويستحيل أن يشترك هؤلاء فى أمور ما لم يكن بينهم اتصال.

هذا العام المشترك، هو الثقافة. وهذا الاتصال الذى يعم عناصر الثقافة بين الأفراد إنما هو عملية تربية وتعليم.

كذلك فإن تواصل مجتمع، يعتمد على سبيلين، أولهما هو التواصل البيولوجى الذى يتم عن طريق التناسل، وثانيهما، التواصل الثقافى، الذى يتم عن طريق التعليم، ذلك أن الصفة الأساسية التى تميز مجتمعا عن آخر، هى ثقافته وليس ذواته الأدمية، فنحن نصف مجتمع مكة والمدينة قبل البعثة المحمدية بأنه مجتمع "جاهلى"، لكن ما أن يمر ربع قرن، إلا ونصفه بأنه مجتمع "إسلامى"، مع أن الأفراد هم هم بيولوجيا، على وجه التقريب لا لشىء إلا نتيجة ذلك التغيير الجذرى فى الثقافة القائمة.

ونحن لا نستطيع أن نصف مصر اليوم، من حيث سكانها، بأنهم يكونون مجتمعا فرعونيا، على الرغم من أنهم - فى الغالب والأعم - نسل متعاقب من هؤلاء الأسلاف الأول، وذلك لأن الثقافة الفرعونية انتهت كأسلوب حياة، وأصبحت محصورة فى الآثار، وعلى صفحات الكتب.

من هنا يحرص كل مجتمع على استمراره، لا بيولوجيا عن طريق التناسل فقط، وإنما ثقافيا كذلك عن طريق تعليم ثقافته لأجياله الجديدة.

بين الرؤية الثقافية والرؤية التكنوقراطية للمسالة التعليمية:

وإذا كانت هذه العروة الوثقى بين "الثقافة" و"التعليم"، فإنها كانت تتجه بالدرجة الأولى إلى ضرورة التعليم بالنسبة للثقافة، مما يتطلب منا أن ننظر إلى الوجه الآخر للمسألة وهو مدى ضرورة المنظور الثقافى للتعليم على وجه العموم.

هنا نجد أنفسنا أمام ضرورة التمييز بين جانبين بالنسبة للتعليم:

– **الجانب الأول**: هو ما يتصل بالتعليم باعتباره "عملية"، وهو ما يجعلها أقرب إلى معنى "التدريس"، فها هنا نجد القضية هى قضية فنية إلى حد كبير، فالتعليم "كعملية" Process له طرقه وأساليبه، وله مناهجه ومقرراته، وله أجهزته التكنولوجية. إننا هنا إزاء محاولات الإجابة عن تساؤل مؤداه: كيف نعلم؟ وهو ما تقتضى الإجابة عنه اللجوء إلى علوم المناهج وطرق التدريس، التى تختلف باختلاف المقررات والمناهج التى تقدم فى مراحل التعليم المختلفة وأنواعه: عربى / لغات أجنبية/ دراسات اجتماعية/ فيزياء/ كيمياء/ أحياء/ رياضيات/ تعليم صناعى/ تعليم تجارى/ تعليم زراعى.. إلخ.

كذلك يرتبط بهذا الجانب أيضا ضرورة معرفة نتائج عملية التعليم مما يتم عن طريق التقويم والامتحانات، وهذه أيضا عمليات فنية، لها أخصائيوها وخبراؤها.

وهناك أيضا تلك الدراسات الخاصة بـــ"المتلقى" لعملية التعليم: استعداداته، قدراته، ميوله، اتجاهاته، دوافعه، وكيف يتعلم وهذا مما تحاول الإجابة عنه علوم النفس التربوية.

– **الجانب الثانى**: هو ما يتصل بالتعليم باعتباره "نظامًا" وهو ما يجعله أقرب إلى الدراسة الاجتماعية بمعناها الواسع الذى يشمل الزوايا الاقتصادية والسياسية، فها هنا نجد القضية قضية ثقافية بالدرجة الأولى، يصعب فهمها ودراستها من غير رؤى متعددة الجوانب، مختلفة الزوايا، تكاد تتسع باتساع المجتمع نفسه.

ولقد شهد تاريخ التعليم المصرى صراعا كبيرا كان سببه الأساسى أن فريقا يستند إلى المنظور الفنى التكنوقراطى، وفريقا آخر يستند إلى المنظور الثقافى، تناظرا حول عدد من مسائل التعليم وقضاياه العامة. ولعل أبرز المعارك التى عبرت عنها مناظرات

من هذا القبيل، تلك التى دارت بين طه حسين وساطع الحصرى من جهة، واسماعيل القبانى من جهة أخرى، وإن كان الطرفان الأولان قد تباينا فى عراكهما مع القبانى.

فلقد كان طه حسين مفكرا عموميا، يتسع همه الثقافى باتساع هموم الثقافة العربية على وجه العموم، والثقافة المصرية على وجه الخصوص. كان يكتب فى السياسة، وفى التاريخ، وفى الأدب، وفى الاجتماع، وفى التعليم، وفى الفلسفة، فنظر إلى التعليم على أنه قضية ثقافية تتصل بالتنور العام، وبحق الإنسان المواطن فى المعرفة، وأن الديمقراطية السياسية التى تقررت فى صورة أحزاب تتنافس لكسب أصوات الناخبين من أجل الوصول إلى الحكم، يستحيل أن تؤتى أكلها ما لم يكن أبناء المجتمع قد حصلوا على الحد الأدنى من التعليم، ومن ثم كان إلحاحه على وجوب نشر التعليم بكل السبل دون أن نتوقف أمام عقبات مالية أو فنية. لم يكن يهمه أن تتوافر تلك الشروط الفنية الدقيقة اللازمة للتعليم كعملية، إذ نظر إلى هذه الشروط على أنها ترف لا تتحمله شعوبنا فى فترة سيادة الجهل وشيوع الأمية وضراوة التخلف. بل لقد دفعه هذا إلى أن يهاجم علوم التربية (البيداجوجيا)، ساخرا منها ومن معاهدها وعلمائها وكتبها!!

لكن إسماعيل القبانى كان أستاذا فى علوم التربية بصفة عامة، وفى القياس السيكولوجى بصة خاصة، مما جعله يحصر نظره فى الشروط الفنية الأساسية لحسن قيام التعليم كعملية، مثل: مساحة الفصل، عدد التلاميذ، المسافة بين التلاميذ والسبورة، شكل السبورة، نوع الطباشير، ولون هذا وذاك، كم المقررات وتوزعها على السنوات المختلفة، كيفية وضع أسئلة الامتحانات، كيفية قياس ذكاء التلاميذ وتوجيه كل منهم إلى ما يتناسب مع استعداداته الفطرية وقدراته العقلية... وهكذا.

وتذبذبت سياسة التعليم فى مصر بين هذا الاتجاه وذاك وفقا لمواقع كل من الرجلين من سلطة التعليم، حيث أتيحت لطه حسين الفرصة أن يكون مستشارا لوزير التعليم أحمد نجيب الهلالى فى وزارة الوفد سنة ١٩٤٢، فضلا عن توزره فى وزارة الوفد عام ١٩٥٠. وأتيحت للقبانى نفس الفرصة أن يكون مستشارا أثناء الحكم السعدى،

حيث كان عبد الرزاق السنهورى وزيرا للتعليم سنة ١٩٤٩، فضلا عن توزره هو الآخر فى عهد ثورة يوليو ١٩٥٣، فى سنتها الأولى.

أما ما دار بين ساطع الحصرى والقبانى، فهو يتصل بقضية الوحدة الثقافية بين بلدان الأمة العربية، فساطع الحصرى، باعتباره قوميا عربيا، كان ينظر إلى التعليم على أنه التربة الخصبة والفرصة الذهبية التى لا مثيل لها لتحقيق حلم الوحدة العربية، وكلما حققنا اشتراكا فى المناهج والمقررات، ووحدة فى نظم التعليم بين البلدان العربية، وكلما كسرنا الجواجز المتعلقة بشروط القبول، كلما ساعد ذلك على إيجاد الجسور المشتركة بين العقول العربية، وعندها، تصبح الوحدة السياسية حتمية، مادامت قواعد الوحدة الثقافية قد أرسيت، وما دامت بذور الوحدة الفكرية قد نثرت فى التربة التعليمية.

لكن القبانى أيضا، من منطلق التكنوقراطى، كان يضع بصره على ما تقوله الاختبارات والمقاييس السيكولوجية من فروق فردية بين الأفراد، مما يستتبع تنويعا واختلافا فى نظم التعليم وصيغه وأساليبه، وكان يضع أمام بصره ما تكشف عنه الدراسات النفسية بالنسبة لمسألة التعلم من أن الإنسان يتعلم ما يخبره، وخاصة إذا كانت الخبرة مباشرة، هذا يستتبع - فيما رأى - أن يلتصق التعليم بالبيئة المحلية.

وهكذا تباينت وجهات نظر المفكرين والتكنوقراط إلى المسألة التعليمية!

ومما لابد وأن يلفت النظر هنا هو أن طه حسين عندما ناقش المسألة التعليمية من مختلف جوانبها كان ذلك من خلال كتابه الشهير الذى حمل عنوان (مستقبل الثقافة فى مصر).. لم يقل مستقبل التعليم إذن لأنه نظر إليه على أنه مسألة ثقافة وحضارة بالدرجة الأولى.

والذى ينظر إلى التعليم بهذا المنظور الثقافى، يهمه بالدرجة الأولى أن يجلى أولا ما يمكن تسميته بـــ "البوصلة الفكرية" أو "الوجهة الأيديولوجية" التى يؤسس عليها مشروعه الفكرى، على أساس أن التعليم هو مجموعة إجراءات تنفيذية، الهدف منها

التشخيص الفعلى لرؤية فلسفية عامة تحاول أن ترسم خريطة للمجتمع وماذا ينبغى أن يكون عليه وللمواطن وكيف ينبغى أن يكون.

ومن هنا نجد كلا من طه حسين وساطع الحصرى قد عنيا بتحديد "الأساس المذهبى"، إن صح التعبير، فذهب الأول إلى ضرورة أن تكون بوصلتنا الثقافية متجهة إلى ثقافة حوض البحر الأبيض المتوسط فى جانبه الأوربى، وذهب الثانى إلى أن الأمة العربية لها خصوصيتها الثقافية وهويتها الحضارية التى ينبغى أن تكون هى الإطار الذى يوطد العمل التعليمى.

وسواء كانت الرؤية الفكرية العامة تتجه إلى هذا الجانب أو ذاك، فلم نر إسماعيل القبانى يعيرها اهتماما ملحوظا فى مختلف كتاباته، وكأن المسألة لا تدخل فى اختصاص عالم التربية، وإنما هى من اختصاص علماء السياسة والاقتصاد والاجتماع، أما عالم التربية فواجبه ينحصر فى البحث عن: كيف يعلم؟ ومتى؟ ومن؟

لكن مما يجدر بنا أن نشير إليه، أن علوم التربية نفسها، تضم مجالين أساسيين يجعلان من الثقافة أرض المعركة الحقيقية لكل من يمتهن التعليم.

أما المجال الأول فهو: أصول التربية، وخلاصة مفهوم هذا المجال أنه ينظر إلى التربية على أنها مجال تطبيقى لنظريات علمية مختلفة متصلة، قد تنتمى إلى علوم أخرى، تماما مثلما هو الأمر بالنسبة (للزراعة) أو (الطب)، فالزراعة مجال تطبيقى لمجموعة من العلوم المتصلة بالعمل الزراعى، وكذلك الطب.

وكمثال تطبيقى، إذا جئنا إلى قضية تعليمية مثل سياسة القبول فى الجامعات، فسوف نجد أنها بالضرورة ترتبط بنتائج امتحانات الطلاب وما حصلوه من معلومات، وهذا مما يتصل بجملة علوم تربوية ونفسية مثل المناهج وطرق التدريس وتكنولوجيا التعليم وعلم النفس التربوى، ولكنها من ناحية أخرى متعلقة بقضية تكافؤ الفرص، والعدل الاجتماعى، فهل نسمح لأصحاب الدرجات الأعلى بالأفضلية فى القبول، بغض النظر عن مراكزهم الاجتماعية وقدراتهم المالية ومذاهبهم وعقائدهم؟

وهناك مسألة أخرى وهى فرص العمل المتاحة لكل تخصص من تخصصات التعليم العالى عند التخرج، وهو أمر يتصل بالنظام الاقتصادى، فهل يلتحق كل من يريد بالتخصص الدراسى الذى يميل إليه، أم يتم ذلك فى ضوء ظروف التنمية؟

إن نظرة إلى هذه المسائل، تجعلنا ندرك أنها تتصل اتصالا وثيقا بالنظام الاجتماعى، وسياسة الدولة ونظامها الاقتصادى.

ووظيفة أصول التربية، هى البحث والحفر فى هذه النظم وعلومها بقدر ما يكون لها من تأثير وتوجيه للعمل التعليمى.

وهى بهذا الاعتبار تعبر عن رابطة اتصال واضحة بين التعليم والثقافة.

المجال الثانى: هو التربية المقارنة، وهى تتعلق بدراسة نظم التعليم المختلفة ومشكلاته والمقارنة بينها فى دول العالم.

وهذا المجال يقوم على ما قد أصبح مسلمة تربوية اليوم، وهى أن أى نظام للتعليم لا يأتى من فراغ وإنما هو يرتبط بالجذور الثقافية للأمة التى تتبناه، وخاصة توجهها الأيديولوجى العام. وكان من أشهر الأمثلة الدالة على هذا، ما كان سائدا فى دول ما كان يسمى بالمنظومة الاشتراكية من نظم تعليم ترتبط ارتباطا وثيقا بالفكر الماركسى فى مختلف مجالاته، مقارنا بنظم التعليم فى بلدان المنظومة الرأسمالية، كما تتبدى خصوصا فى الدول الصناعية الكبرى: الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا وفرنسا.

حتمية الرؤية الثقافية:

وإذا كان هناك مجالان بالفعل فى العلوم التربوية يقومان على (الرؤية الثقافية) فإننا نريد هنا أن نؤكد على أن هذه الرؤية لا ينبغى أن يقف بها الأمر عندهما، وإنما ينبغى أن تكون هى الحاكمة، وهى الموجهة.

ونحن لا نسوق هذا الرأى اعتسافا، وإنما نستند فى ذلك إلى اعتبارين:

١- التجربة التاريخية: وهنا لا نريد أن نغوص بعيدا فى عمق المحيط التاريخى الذى يحفل بالعديد من الخبرات والأمثلة، وإنما نستشهد بمثالين من تاريخنا العربى فى القرن

التاسع عشر ومثالين من القرن العشرين: فعندما كان جيش الحملة الفرنسية يخوض معارك الغزو والبقاء على أرض مصر والشام فى الفترة من عام ١٧٩٨-١٨٠١، كان مسئولو الحملة يبعثون العلماء الفرنسيين فى المناطق المختلفة بغية البحث والدراسة، وتم ذلك تحت بصر ضابط من الفرقة الألبانية فى الجيش العثمانى، هو محمد على، الذى أدرك أنه لكى يكون على قدر من القوة تمكنه من الوقوف بندية أمام القوى الغربية الطامعة، بعد أن صارت له الولاية على مصر عام ١٨٠٥، فلابد أن يكون على قدر من البصر والإرادة التى تجعله يسعى بكل ما يستطيع نحو (تحديث) الثقافة بالمعنى الغربى.

ومن المعروف أن التحديث كان له سبيلان: أولهما، النقل والاستيراد والاستعارة لمكونات وعناصر ثقافة التحديث. وثانيهما: البناء الذاتى. وإذا كان سبيل النقل والاستيراد طريقه معروف، حيث يتعامل مع الثقافة كسلعة تجارية، فإن السبيل الثانى إنما يقوم على تعليم وتعلم، تعلم ما لدى المجتمعات المتقدمة، وتعليمها للأجيال الجديدة. وهكذا أصبح التعليم فى تلك الفترة، طريق النهوض الثقافى، وسبيل النهضة الحضارية.

والمتأمل فى المدارس المختلفة التى فتحت، وفى البعثات التى أرسلت، وفى الجهود التى بذلت، يستطيع أن يلمس بكل وضوح وجلاء أن التعليم قد تم تناوله بالفعل من منظور ثقافى واسع، ومن خلال رؤية حضارية متكاملة.

ومن ناحية أخرى، فإذا كانت قوى الاستعمار التقليدى فى القرن التاسع عشر تعتمد بدرجة أساسية على القهر العسكرى المتمثل فى قواتها العسكرية وعتادها العسكرى، لكنها من ناحية أخرى كانت على درجة من الذكاء جعلتها تنظر إلى المسألة بمنظور ثقافى، بمعنى: بذل الجهد للتمكين الثقافى لها، وكان سبيلها فى ذلك، هذا الكم غير العادى من المدارس الأجنبية، سواء فى صورتها المدنية العلمانية أو فى صورتها الدينية، عن طريق الإرساليات الأجنبية الدينية.

وفى قرننا العشرين، نجد مثالين صارخين، الأول هو أرضنا العربية فى لبنان، فقد

شهدت عددا من صور وصيغ التعليم المتباينة والتى ينتمى كل منها إلى ثقافة مغايرة للأخرى، مما أفرز للمجتمع جموعا من المواطنين متباينى الهوية، مختلفى المشارب، حتى علا صوت الطائفية إلى درجة العراك المسلح، وأتاح الفرصة لقوى البغى الخارجى أن تزيد النار اشتعالا، وتعمق من هوة الخلافات.

أما على أرضنا العربية فى فلسطين المحتلة، التى شهدت هجرة أشتات من أمم عديدة، شرقا وغربا، بألسن متعددة وثقافات متباينة جعلت من المستحيل أن تشهد مجتمعا متجانسا موحدا، الذى هو الشرط الأساسى لقيام الدولة. وهنا يجىء التعليم ليمثل ما يشبه العصا السحرية، فتعود (العبرية) من مرقدها فى الكتب لتصبح لغة تعليم، وبالتالى أداة اتصال بين أفراد الجماعات القادمة من خارج لتكثير صور التشابه وإتاحة فرص التفاعل الاجتماعى والاشتراك فى الأهداف، وتعزيز مجالات التثقيف القومى اليهودى فى مختلف المدارس والجامعات والمعاهد، تاريخيا ودينيا، فتزداد عرى الاتصال وتتضامن فئات المهاجرين وتتقارب، بل وتندمج، كل هذا فى جهد شاق مكثف لابد من النظر إليه نظرا علميا مقدرا، بغض النظر عن استنكارنا الحاد لبواعثه وأهدافه المشينة.. وهكذا.

٢- الاعتبار الثانى، هو وظيفة "التربية" نفسها، ذلك أنه مهما اختلفت مفهوماتها وتعددت زوايا الرؤية لها، فإنها لا تكاد تختلف الآن على أنها فى جملتها تسعى نحو التنمية المستمرة المتكاملة لجوانب الشخصية الإنسانية المختلفة. وهدف مثل هذا، من الطبيعى أن يرادف بين عملية "التثقيف" - نكرر، بالمعنى الذى حددناه فى البداية - وبين عملية "التربية".

صحيح أن تنمية كل جوانب الشخصية له أسسه ومبادئه وأصوله الفنية، لكن المنظور الكلى، والرؤية المتكاملة شرط أساسى حتى يتوافر لعملية النمو، التناسق والتناغم الضروريان لوحدة الشخصية الفردية من جهة، ووحدة الشخصية القومية من جهة ثانية. إننا هنا نكون أشبه بمجموعة من العازفين فى فرقة موسيقى، لكل آلته المميزة، لكن الجميع، لابد أن يلتزموا (بالنوتة) التى توفر القدر الضرورى من

"الهارمونى" وأيضا "الرؤية الثقافية" العامة هى هنا تقوم بنفس الدور الذى تقوم به (النوته الموسيقية) بالنسبة للعازفين.

ومع الأسف الشديد، فمن الملاحظ أن كليات التربية فى معظم بلداننا العربية إنما هى اسم على غير مسمى، فإذا كان هذا هو ما سقناه من معنى للتربية، التى تتخذ وظيفة لهذه الكليات، إلا أنها، واقعا وعملا، تتحول إلى كليات لإعداد المعلمين الذين يقومون بتدريس مقررات دراسية فى مستويات التعليم قبل الجامعى. ولو كانت هذه الكليات أمينة مع وظيفتها التى عليها اسمها لاتسعت مهمتها لتتجه كذلك إلى مختلف القوى المربية فى المجتمع: إلى الدعاة الدينيين.. إلى الآباء والأمهات.. إلى رجال الإعلام، وخاصة فى الإذاعة والتليفزيون، فمثل هذه القطاعات تشارك فى المسئولية عن تكوين شخصية المواطنين وتسهم فى تربيتهم. ولا نقصد - بطبيعة الحال - أن تزاحم كليات التربية الأجهزة المتخصصة فى هذه القطاعات فى عملها وإنما نقصد تزويد العاملين فيها بالبعد التربوى اللازم لبناء الإنسان.

وإذا كنا قد أشرنا إلى مجال "أصول التربية" باعتباره الأرض التى يتحتم أن نتناول فيها التعليم من منظور ثقافى، إلا أننا نلاحظ فى الفترة الأخيرة، فى بعض الكليات زحفا متزايدا لفروع هذا المجال مما يتسم بقدر كبير من التكنوقراطية. ونحب أن نسجل بداية، تسليمنا بأهمية هذه الفروع وبضرورتها، لكن أن يعنى هذا التسليم انحسارا فى فروع أخرى لها طبيعتها الثقافية العامة، فهذا هو ما نحذر منه ونخشى على العمل التربوى معه.

لقد تنبه الفكر التربوى منذ الستينيات إلى أهمية دراسة الأصول الاقتصادية للتربية فبدأت الدراسات الاقتصادية للتعليم تشق طريقها مما أثرى هذا الفكر بالفعل بالعديد من الدراسات الضرورية. لكن كثيرًا من هذه الدراسات قد غرق فى بحر من الأمور الفنية التى تجعل هذا القطاع أقرب إلى الدراسات التى تجرى فى كليات التجارة والاقتصاد، بينما المفروض أن يغلب على تناول الباحثين التربويين له، منظور المجتمع العام، فليس الإنسان مجرد سلعة تقدر وتوزن بكم من المال، وليس الإنسان ظاهرة

كمية، وإنما هو كل ومركب ثقافى، هو كجبل الثلج، لا يظهر منه للرائى إلا جزء ضئيل، أما معظمه، فغالبا ما يختفى فى أسفل.

ثم إذا بنا نعانى أيضا من تضاؤل الدراسات التاريخية والدراسات الفلسفية للمسألة التعليمية، تحت وهم خاطئ بأن هذه أمور (تقليدية) ينبغى أن تفسح الطريق للمستحدثات من فروع العلوم التربوية، ولسنا فى مجال يسمح لنا هنا بالإفاضة فى مناقشة هذا الوهم لتأكيد أن الدراسة التاريخية عندما يتم تناولها من منظور حضارى اجتماعى، تشكل وعيا ضروريا لحسن التعامل مع الحاضر التعليمى، وجودة استشراف المستقبل.

أما الدراسة الفلسفية، فهى فى لحمتها وسداها تتصل بالمفاتيح الأساسية، بالمفاهيم الرئيسية التى يتم التعامل بها فى عالم التعليم، فهل نستطيع أن نأمن حسن التعامل إذا افتقدنا وضوح المفاهيم والاتفاق على وحدات العملية الفكرية المتداولة؟!

مهام المدرسة بالنسبة للثقافة:

وإذا ما جئنا إلى مهام بعينها تقوم بها المدرسة بالنسبة للثقافة، فإننا نصارح القارئ بأنه من العسير علينا أن نخص مؤسسة تعليمية بعينها، القيام بمثل هذه المهام، ذلك أن معاهد التعليم المشكلة لمراحله الثلاث: الأساسى، الثانوى، العالى، إنما هى حلقات مترابطة متكاملة، ومن ثم فحديثنا هنا لا ينحصر - صراحة - داخل تلك المؤسسة التى اصطلحنا عليها باسم "المدرسة" تعبيرا عن مؤسسة التعليم قبل الجامعى، بل يمتد بها لتشمل كذلك التعليم العالى، وإن كان التركيز - لأغراض الدراسة - سوف يكون على المرحلة السابقة على هذا التعليم.

وعلى هذا نستطيع أن نوجز فيما يلى مهام المؤسسة التعليمية التثقيفية:

١- **النقل**: ونعنى به إيقاف جيل الصغار على مجمل الحقائق والمعلومات والمهارات والقيم والاتجاهات التى توصل إليها جيل الكبار، الذى لا نقصد به الجيل المعاصر المسئول عن الصغار وحدهم، وإنما سائر الأجيال السابقة، دون أن يقتصر هذا

أيضا على كبار المجتمع الذى نربى له، وإنما جملة الإنتاج الثقافى الذى توصلت له البشرية خلال مجموعة المقررات الدراسية التى يتلقاها الصغار فى مؤسسات التعليم المختلفة.

فالمسألة هنا لا يحكمها التعصب القومى، ولا النزعات الطائفية، ولا الأهواء الذاتية وخاصة بالنسبة لثمرات العلوم المختلفة، فهى جهد بشرى قد أصبح ملكا للإنسانية جمعاء، ولا يستطيع إنسان أن يكون متعلما حقا إلا إذا تلقى الجملة العامة لأساسيات العلوم بمجالاتها الكبرى.

والجزء الأكبر من هذه العملية تقوم به مدارس المرحلة الأولى والتى، نظرا لأن وظيفتها الأساسية تنصب على عملية نقل أساسيات المعرفة إلى الأجيال الصغيرة، أصبح يطلق على ما تقدمه من تعليم: تعليم أساسى، والتى تختلف مدته وفقا للإمكانات والظروف الخاصة بكل مجتمع. ومن هنا نلاحظ أن المجتمعات المتقدمة تطيل هذه المرحلة نظرا للكم المذهل اللازم أن يتعلمه المواطن حتى يستطيع أن يحسن التعامل مع الحياة.

وليس معنى هذا أن هذه المهمة لا تمارس فى مراحل التعليم التالية، فهى - بطبيعة الحال- مهمة مستمرة، بل إنها تمارس كذلك فى التعليم العالى، وإن كانت الأساسيات هنا لن تكون عامة بجملة المعارف الإنسانية وإنما تكون خاصة بمجال بعينه، كما نرى فى الطب والزراعة، والهندسة.. إلخ وخاصة تلك المجالات التى ربما لا تكون الفرصة قد أتيحت للطالب كى يدرسها فى مرحلة تعليمية سابقة.

٢- **الانتقاء:** وهى مهمة مكملة للمهمة السابقة، إذ لا يتصور، لا عقلا، ولا إمكانات، أن تتمكن المدرسة من نقل (كل) الموروث الثقافى، ربما كان ذلك ممكنا فى العصور السابقة القديمة والوسطى إلى حد ما، أما فى العصر الحديث الذى أصبح يسمى بعصر الثورة المعرفية، وثورة الاتصالات، وعصر المعلوماتية... إلخ، وحيث إيقاع التراكم المعرفى يعجز أى إمكانية بشرية أن تستوعبه، فلابد فى هذه الحال من (الاختيار) ولابد من (الانتقاء).

وإذا ما خضعت عملية التثقيف للاختيار والانتقاء، فهذا يعنى ضرورة الاستناد إلى معايير.. هذه المعايير، منها ما قد يكون عالميا، ومنها ما قد يكون إقليميا. وعلى سبيل المثال، فبالنسبة لتعليم الرياضيات هناك أساسيات قد لا يكون هناك اختلاف حولها لابد وأن تقوم المدرسة بتعليمها الأبناء، والشيء نفسه بالنسبة لتعليم الفيزياء والكيمياء.. إلى غير ذلك من أنساق معرفية تسير بنفس المنهج وعلى نفس الطريق.

لكننا إذا أتينا إلى الدراسات الاجتماعية، فها هنا سنجد مزاوجة بين ما هو عالمى وما هو إقليمى وطنى، فعادة ما يتم تعليم جغرافية البلدان ذات المكانة.. السياسية والحضارية الكبرى، خاصة وأنها بالضرورة تكون ذات علاقات مع مجتمعنا. لكننا من ناحية أخرى نجد لزاما علينا التركيز بالتفصيل على ما يتصل بجغرافية هذا البلد أو ذاك من البلدان العربية بصفة خاصة. ثم لابد كذلك من تعليم جغرافية مجموعة البلدان العربية الأخرى... وهكذا الشأن بالنسبة لمادة التاريخ.

لكننا عندما نأتى إلى ما يتصل بالتربية القومية أو الاجتماعية أو الوطنية، فإننا نجد المسألة هنا تخضع تماما لمعيار الإقليمية والوطنية.

وتختلف بلدان متعددة فى مسألة تعليم اللغة الأجنبية بالمرحلة الأولى، فمنها ما يرى أن هذه المرحلة يجب أن تقتصر على تعليم اللغة القومية، ومنها ما يرى أنه لا بأس من تعليم اللغة الأجنبية، على أن يكون ذلك فى سنوات متأخرة من المرحلة نفسها.

٣- **التبسيط**: فغنى عن البيان أن الطلاب متفاوتون فهما واستيعابا، لا بالنسبة لما بينهم من فروق فردية فحسب، وإنما لما بين الفرد ونفسه، وفقا لمراحل تطوره الزمنى، وهذا ما يحتم على رجال التعليم عدم الوقوف عند حد الانتقاء، وإنما لابد من تبسيط المعلومات بحيث تتناسب مع سن المتعلم، وهكذا يمكن أن نعلم الطالب فى المرحلة الابتدائية، على سبيل المثال، صورا من التاريخ القومى، ثم نعاود تعليمها فى المرحلة الإعدادية، أو نعلمه إياها فى الابتدائية، ثم نعاود تعليمها فى الثانوية، بحيث يكون هناك تفاوت فى مستوى العرض والشروح باختلاف عمر الطالب.

كذلك يجد رجال التعليم أنفسهم أمام ضرورة أن تساق المعلومات فى صورة دقيقة بحيث لا تهبط إلى درجة من التبسيط الذى قد يشعر الطالب معها أنه أمام معلومات تافهة، ولا تعلو إلى درجة يرى معها الطالب المتوسط أنها عصية على الفهم والاستيعاب.

إن هذا يفسر - ربما - ما قد تلاقيه بعض الكتب الدراسية - أحيانا - من إخفاق، على الرغم من أن مؤلفيها قد يكونون من كبار العلماء وأساتذة الجامعات، ذلك أن الكتاب المدرسى ليس كتابا علميا متخصصا يغوص فى أعماق الفرع العلمى ويحتاج إلى مهارات خاصة فى التوضيح والشرح والتبسيط.

لكننا، من ناحية أخرى، قد بدأنا نلمس تبسيطا مخلا، فيما يعرف (بالكتب الخارجية)، والتى تحكمها عادة اعتبارات التجارة والكسب المادى، فيديرونها، غالبا، حول بعض المهارات التى تمكن الطالب من أن يجتاز الامتحان بنجاح، على أساس أن هذا هو الهدف الكبير، دون أن يوضع فى الاعتبار هدف "التعلم" و"التثقيف"، بل لقد وصل البعض إلى أن يروج مجموعة اختبارات والإجابة عنها، دافعين الطلاب إلى الاكتفاء بمذاكرتها دون الرجوع إلى الكتاب الرسمى المقرر، وهكذا تختزل عملية التعليم والتثقيف إلى هذا الحد المتدنى.

٤- **التصفية والتهذيب**: فعلى الرغم من أن الإنسان هو خليفة الله على الأرض، وهو المخلوق الذى وصف بأنه خلق فى أحسن تقويم، إلا أنه لم يكن دائما خيرا طوال العهود، وفى مختلف البقاع، فمثلما أبدع شعرا جميلا يخاطب به أنبل المشاعر وأرقها، أبدع شعرا يعبر عن الكراهية والحقد، ويحث على العراك والخصام. ومثلما أبدع أدوية تعالج وتشفى، أبدع أسلحة تدمر وتفتك وتقتل.

وهكذا نجد الموروث كلا ضخما يمتلئ بالصفحات البيضاء، فى الوقت الذى يمتلئ فيه كذلك بالصفحات السود.. بأساليب الكيد والغش والخداع.. بالمؤامرات والمكائد وتحالفات الشياطين... بالخرافات والأوهام والإشاعات.

وهكذا يجد رجال التعليم أنفسهم أمام مهمة أخرى خطيرة الشأن تتجه إلى هذا

الموروث الثقافى لتهذبه وتصفيه من الشوائب والأكدار ليصل إلى الأجيال الجديدة نقيا ناصع البياض.

ولا نعنى بهذا بأى حال من الأحوال أن تزوق المدرسة، بالوهم، الموروث الثقافى، وتزخرفه بالخيال، فهذا الموروث (واقع) فعلى، وأمر قد حدث فعلا، وهو متوافر فى المصادر المختلفة، لا سبيل إلى حجبه وإلغائه. لكن بيئة المدرسة نفسها لا ينبغى أن تسمح بأن تكون ساحة لكل ما هب ودب من الموروث الثقافى، ولا حتى بعضه ولو كان مبسطا. إنها بيئة "معقمة"، لا بمعنى الانفصال عن الحياة، وإنما بمعنى أن تكون نظيفة الفكر، طاهرة الثوب، وهى تتعامل مع الحياة.

ومع ذلك فلسنا من القائلين بالتغافل تماما، حتى عن الصحائف السود فى الموروث الثقافى، فقط لابد من اختيار الوقت المناسب، ففى مرحلة التعليم الأولى، لا ينبغى الاقتراب إلا مما هو مضىء ومشرف ومفيد، ثم يتم التدرج نحو تعليم العناصر الأخرى، مع تزايد النضج الفكرى للطلاب، حتى إذا وصلوا مرحلة التعليم العالى أمكنهم دراسة تلك الظواهر السلبية كأعراض مرضية فى التطور الثقافى، مثلهم فى ذلك مثل الطبيب الذى لا تقف دراسته عند حد الجسم فى حالة السواء، ولكن لابد من دراسته كذلك وهو فى حالة المرض.

٥- **النظر التكاملى**: فلقد أدى التطور المستمر للثقافة، مع تناميها وتضخم عناصرها وسرعة تغيرها إلى مزيد من الانشطار المعرفى الذى يزيد من فروع المعرفة ويجزئها، وإذا كان هذا أمرا يزيد من فرص التعمق والإبداع والابتكار، إلا أنه قد أبرز فى الوقت نفسه خطورة افتقار وحدة النظر والجسور المشتركة، خاصة وأن الحياة الكونية نفسها والحياة البشرية تتحرك كلا متكاملا يمسك بعضه بأزر بعض، يؤثر فيه ويتأثر به.

لقد أدت التجزئة المعرفية إلى ضرورة أن تعلم المدارس العلوم المختلفة، فى صورة مقررات منفصلة، لكل منها معلمها ووقت تعليمها، على خريطة الجدول الدراسى، لكننا فى الوقت نفسه نتنبه إلى أن كل ما يخرج من هؤلاء المعلمين مختلفى التخصصات

إنما يصب فى تلميذ واحد مما يقتضى إيجاد صيغة ما كى يعى الطلاب ضرورة وحدة النظر وتكامل المعرفة.

إن مدرسة المرحلة الأولى عادة لا تغرق طلابها فى محيط التخصص والتفريع، ولكننا، فى تعليم المرحلة الثانية درجنا على تقسيم التعليم إلى عام وفنى، ثم فرعنا الفنى إلى زراعى وتجارى وصناعى وعسكرى ودينى.

ولعل هذا ما دعا بعض المربين إلى التفكير فى صيغة (المدرسة الشاملة)، حتى تقدم إلى الطلاب المعرفة دون فصل تعسفى بين عام وفنى، مع إتاحة الفرص لذوى الاستعدادات الخاصة أن تزداد جرعة تعلمهم فى هذا التخصص أو ذاك، حتى لا يقع فى خطر آخر، وهو التغافل عن الفروق الفردية بين الطلاب، وتنوع وتعدد واختلاف قدراتهم وميولهم، فتسقط فى جب صب الطلاب فى قالب واحد وهو الأمر الذى يتنافى وطبيعة الحياة البشرية وسنة الله فى كونه.

وإذا كان هناك تشعيب إلى علمى وأدبى ورياضة فى المرحلة الثانوية، فهناك فرص لأن تكون هناك دراسات اختيارية يختارها الطالب الذى يريد التخصص فى الأدبى، من التخصص الآخر، والعكس صحيح، حتى يستمر الوعى بالتكامل.

إنها مسألة تحتاج إلى كثير من الدقة والحذر، فنحن أمام طرفى معادلة، أحدهما أن يدرس الطالب ما يتفق مع ميوله واستعداداته، وثانيهما، أن نحقق له التكامل المعرفى والنظر الشامل الثقافى.

٦- **التأسيس الثقافى لوحدة الأمة**: فلكل مجتمع هويته القومية، ولكل أمة هويتها الحضارية، وهذه الهوية الخاصة تقتضى اشتراك جميع أفراد الأمة فى عدد من العموميات، وعلى سبيل المثال، نجد لزاما على كل من ينتسب إلى الأمة العربية، أن يكون عارفا بلغتها القومية العربية، فضلا عن عدد آخر من الاتجاهات والقيم المميزة لهذه الأمة.

وبقدر ما يكون هناك من (عموميات) مشتركة، بقدر ما يكون هناك من تماسك اجتماعى ووحدة قومية.

ولعل وظيفة المدرسة فى هذا الشأن واضحة جلية، كما أشرنا من قبل، فى مرحلة التعليم الأولى بصفة خاصة.

لكننا، فى الوقت نفسه، لابد أن نكون على وعى بالحدود التى لابد أن نقف عندها لتبدأ بعد ذلك فرص "التخصيص" الثقافى، سواء بالنسبة لكل بلد عربى، أو لكل قطاع فى كل بلد، حتى لا تختلط الحدود بعد ذلك بين "الوحدة الاجتماعية" وبين "التنميط الثقافى"، بين "وحدة النظر القومى" وبين "النهج الشمولى".

إن بعض المجتمعات تسمح، فى مرحلة التعليم الأولى بتنوع واضح فى أنماط ونظم وصيغ التعليم، فهذا تعليم حكومى مجانى، وهذا تعليم حكومى بمصروفات، مع تقديم لغة أجنبية، وهذا تعليم خاص بلغة أجنبية، وهذا تعليم أجنبى، وهذا تعليم دينى، وهذا تعليم عسكرى.. إن التنوع مطلوب، لا لأنه مجرد (رغبة) ولكنها سنة الله فى خلقه، ولكن مرحلة التعليم الأولى بصفة خاصة لابد أن تكون موحدة، فهى فترة التأسيس الثقافى الذى لا ينبغى أن يكون فيه تعدد وتباين.

أما فى فترة التعليم الثانية، فأرض الله واسعة فى التنويع والتعديد "وفى ذلك فليتنافس المتنافسون".

٧- **التطوير**: وتلك ذروة المهام التى دونها يمكن أن تنقلب الوظائف والمهام السابقة إلى "نقمة" بدلا من أن تكون "نعمه".

فليس من المتصور أن يقتصر التعليم على نقل الموروث حتى مع توحيده وتصفيته وتبسيطه وإلا فسوف يجىء كل جيل جديد ليكرر ما سبق أن كان فى الجيل السابق، فلا تخطو البشرية إلى أمام. والجمود فى حركة التاريخ رجوع إلى وراء.

ومن هنا تأتى ضرورة الإبداع، ومن ثم تتبدى حتمية التغيير والابتكار.

إنها المهمة التى تمد جسم الثقافة بأسباب الحياة والاستمرار.

ولقد يقال إن التجديد الثقافى والإبداع الحضارى لا يتم فى معاهد التعليم وإنما يتم - غالبا - من خلال آخرين، وفى معامل بحث مستقلة. وإذا كان هذا يحدث أحيانا، لكن التجديد والابتكار لا يقتصر على مكان دون آخر، فقط لسنا نتصور أن يتم

هذا فى مرحلتى التعليم قبل الجامعى، وإنما يتم، غالبا، فى التعليم العالى وبصفة خاصة فى الدراسات العليا، ويتم على أيدى عدد من أعضاء هيئة التدريس والباحثين.

ومع ذلك فإننا لا نعفى بهذا مرحلتى التعليم الأولى والثانية..

قد لا نتطلع إلى اختراع، وقد لا نتوقع نظرية جديدة، وقد لا نعثر على اكتشاف علمى عند طلاب التعليم قبل الجامعى، ولكننا أمام حتمية تهيئة التربية التى ستنبت بعد ذلك ما يخترع وما يكتشف.

إن التعليم القائم على الحفظ والاستظهار، والتعليم القائم على التلقين، لا يمكن إلا أن يخرج لنا عقولا حافظة، مشلولة القدرة عن الابتكار والتجديد.

إن التنويع فى طرق التعليم وفتح السبل أمام الحوار والنقاش وتشجيع المبادرات الفردية وإثابة المنجز الناجح، وسائل من شأنها أن تهيىء مناخ الابتكار، بحيث يكون طلابنا تربة خصبة يمكن أن تثمر الجديد الثقافى.

ولعل هذه الوظيفة دون غيرها هى التى تفرق بين التقدم والتخلف، بين مجتمع مشدود إلى الخلف ومجتمع يتطلع إلى الغد.

شروط أساسية:

إن هذه المهام وتلك الوظائف التى تعد جزءا أساسيا من أهداف التعليم الذى تقوم به مؤسسات التعليم بصفة عامة، والمدرسة بصفة خاصة، لا تستطيع أن تتحرك وحدها آليا لتقوم بما نطالبها به. كما لا نستطيع أن نتصور أن مجرد الأمانى والأحلام كفيلة بتحقيق ذلك، فهناك شروط أساسية لابد من توافرها، هى فى جملتها تعبير عن (مناخ) تستطيع فيه المدرسة أن تتنفس فتؤدى دورها التثقيفى. وهى من جانب آخر تعبير عن بعض السبل والطرق المعينة على تأدية المدرسة لهذا الدور. ونحن قبل أن نشرع فى الإشارة إلى هذه الشروط نسجل وعينا بالتكامل بينها، بل والوحدة، وربما يكون هذا مفسرا لما قد يحدث من تداخل. ومع ذلك فقد آثرنا التصنيف، وملنا إلى التفصيل حتى نكشف الضوء -نسبيا - على جانب دون غيره، وإن كان هذا لا يعنى تفضيلا وتقديما. أما هذه الشروط فهى:

١- **المجتمع المعلم**: فقديما قيل إن العقل السليم فى الجسم السليم وإذا طبقنا هذه القاعدة على موضوعنا، فيمكن النظر إلى التعليم على أنه هو العقل، وإلى المجتمع على أنه هو الجسم، وبالتالى، فإن المجتمع المتخلف عادة ما ينتج تعليما متخلفا فيفرز عقولا هشه تفتقد التفكير الناقد وقدرات الابتكار والإبداع، فتكون عونا على التخلف، لا سلاحا يحاربه.

ولا نريد أن ننجر إلى مناقشة ما يُشبه مسألة الدجاجة أم البيضة أولا هنا، حيث قد يرى البعض أنه لا سبيل إلى تجاوز التخلف إلا بالتعليم، فكيف يستقيم هذا مع قولنا إن التعليم يكون قليل الحيلة فى المجتمع المتخلف؟

فنحن لا ننادى بالانتظار حتى ينـــزاح التخلف، ولكننا نسعى إلى أن تكون المعركة ممتدة، وشاملة كل الجبهات، فالسعى الدؤوب المكثف لمحاربة التخلف فرض عين والتعليم لا يقل عن ذلك وجوبا.

إن صحة كل عضو فى الجسم، وسلامة كل جهاز فيه، تجعل بعضه يشد أزر بعض الآخر، والعكس صحيح كذلك، ومن هنا فإن سلامة البنية المجتمعية وجدة نظمها وصلابتها، ومسيرتها على الطريق السليم المحقق لتقدم المجتمع، من شأنه أن يمد المدرسة بأسباب القوة والحيوية فينضج ثمار عملها إثمارا سليما.

لقد حكى أحد شيوخ الأزهر أنه قد تعلم فى القرن الماضى، فى علم الجغرافيا أن القمر عندما يظهر هلالا فى أول الشهر، يذهب إلى الله عز وجل فيسجد شاكرا، فيزيده الله جزءا فيظهر فى الليلة التالية أكبر، ويتكرر هذا كل ليلة، إلى أن يكتمل فى منتصف الشهر، فيأخذه الغرور فلا يسجد لله شكرا، فينقص منه قدرا، ويتكرر هذا كل ليلة إلى أن ينتهى تماما آخر الشهر، فيقذف به الله ليأتى بهلال جديد.. وهكذا تتكرر العملية كل شهر!!

كان هذا تعليما يتم، لأنه كان يعايش مجتمعا متخلفا، يفقد المدرسة فاعليتها فى التثقيف، وفى التعليم.

وهناك أمثلة كثيرة لنظم حكم يمكن أن تشيع وعيا زائفا بالتاريخ على سبيل المثال

لتحقيق ما تظنه سلامتها وأمنها. ومما يمكن تذكره هنا على سبيل المثال، ما كان يتعلمه تلاميذ المدارس المصرية فى أوائل القرن العشرين عن "الثورة العرابية" بأنها كانت "تمردا" و"عصيانا"، وكان زعيمها الوطنى أحمد عرابى يسمى "العاصى"!!

٢- ويرتبط بها ارتباطا وثيقا ذلك التناسق وذلك التناغم المفروض أن يحدث بين مختلف المؤسسات المؤثرة فى ثقافة المواطن...

فالأسرة، الحديث عنها يطول بيانا لما تقوم به من حيث إنها المدرسة الأولى التى يتعلم فيها الطفل لغته القومية بما فيها من مفردات وطريقة تفكير وقيم، وهى التى يتعلم فيها الأبناء ما يصح وما لا يصح من القيم والعادات والتقاليد، وهى التى تقدم لهم المفاهيم الأساسية الأولى التى تقوم عليها الثقافة الوطنية، وهى التى تعلمهم مبادئ الدين وقواعده الأساسية وممارساته.

فماذا لو قدمت الأسرة فعلا معاكسا أو منحرفا عما تقدمه المدرسة فى عملية التثقيف؟ - وماذا نقول عن أجهزة الإعلام: الإذاعة والتلفزيون والصحافة؟

إن أخطر ما فى هذه الأجهزة هو أن الطالب يتلقاها باختياره هو: فى الوقت الذى يريد، وفى المكان الذى يرغب، وهى تتمتع بالحيوية والإثارة والجاذبية وتعدد الألوان والحركة، وكل هذا، وغيره كثير، يجعلها أبوابا مفتوحة على مصراعيها كى تلقى إلى أسماع الطلاب بما لا حصر له من فنون الثقافة وغيرها...

فماذا كذلك لو عاكست أو انحرفت عما تقدمه المدرسة فى عملية التثقيف؟

قد يتساءل أحدنا: وكيف يمكن أن يتم ذلك؟

أبسط الأمثلة التى يمكن أن تساق بالنسبة للأسرة - مثلا - ما قد يراه الأبناء من أساليب غش ونفاق، وهى أمور ليست بعيدة عن الحدوث.

وأشهر الأمثلة، ما قد يراه الأبناء من تفرقة فى المعاملة وقسوة ومظاهر شقاق بين الأب والأم.. وهكذا.

وفى أجهزة الإعلام قد يرى الطفل مشهدا فى فيلم تكون الأمور فيه قد بلغت ذروة

التعقد والغموض، ثم تنحل فجأة بحل خارق يرجع إلى الصدفة البحتة، فلا يدرى الطفل: هل يجلس دائما عندما تتعقد الأمور فى انتظار الصدفة والمعجزة الفجائية، أم يسعى بالتفكير العلمى كما تقول المدرسة ويجاهد؟

وإذا نظرنا إلى لغة الصحافة، رأينا زحفا مؤسفا للهجة العامية مما أصبح الأمر معه يشكل خطورة تتبدى فى اتساع الهوة بين ما تعوده الطالب فى قراءتها وبين ما يجده فى كتابات كبار المفكرين والفلاسفة والعلماء من صيغ وأساليب أخرى تبعد عن السطحية وتغوص فى أعماق القضايا، وتتطلب رؤى ناقدة وبصرا نافذا.

- وشىء مثل هذا يمكن أن نقوله بالنسبة لدور العبادة، التى قد يظن لأول وهلة أنها لا يمكن أن تعاكس فى فعلها، فعل المدرسة.

والحق أن ذلك عادة ما لا يأتى قصدا، وإنما قد يأتى من شيوع بعض المفاهيم الخاطئة والممارسات غير السليمة.

قد يأتى من عجز البعض عن أن يمارس فعلا، الدعوة والجدال بالتى هى أحسن، فيدفعه الحماس الزائد، مع الوعى الضعيف، إلى صور من التعصب الذى يحجر التفكير، ويشل العقل عن الانفتاح على آراء الغير وأفكارهم.

وقد يأتى من تركيز - بحسن نيه - من بعض - مثلا - على عذاب القبر، غافلا عن التحدث إلى الناس بما يعيشونه من عذاب الشارع والمحل والمصنع والمزرعة!!

٣- مناخ الديموقراطية: فعلى الرغم مما أثبتناه من نظر الثقافة فى مظاهرها المادية والمعنوية، فإننا نؤكد هنا أنها فى البدء - عادة - ما تكون فكرة.. والفكرة ثمرة عقل يمارس فعل التفكير، ذلك الفعل الذى يعسر أن يتم سليما إذا لم يصدر عن صاحبه حرا بغير خوف ولا رهبة من سجان أو مستبد لئيم!

لقد كان يشار لنا دائما إلى بلدان ما كان يسمى بالمنظومة الاشتراكية، وكيف أنها تزدهر بالنتاج الثقافى فى مختلف الفروع والفنون، بل وإن سبلها كانت ميسرة وفى

متناول مختلف الفئات والشرائح الاجتماعية بأبخس الأسعار، علما بأن هذه البلدان كانت تحكم حكما شموليا قاهرا مستبدا!!

لكننا ينبغي أن نتذكر أن هذه البلدان، كلها على وجه التقريب، كانت تتسمى - غالبا - باسم الجمهورية الديموقراطية، حيث ثبت أن هذا كان اسما على غير مسمى.

فماذا حدث بعد أن تجرأ آخر زعماء هذه المنظومة الدولية - جورباتشوف - ففتح طاقة صغيرة للنقد والمراجعة؟!

لقد انهار البناء كله، وسقط سقوطا تاريخيا مدويا، لا مثيل له دون أن تطلق رصاصة واحدة، ودون أن تراق قطرة دم!

ثم إذا بالجهود الثقافية التي استمرت ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن، تصبح أثرا بعد عين.

ودرس الدارسون، وبحث الباحثون، وتعددت العلل والأسباب، ثم إذا بالجميع يشيرون إلى السبب الأم، والعلة المركزية... إنه غياب الديموقراطية.

وسيادة النمط الفكرى الواحد، والرأى الغالب المفروض على الأمة، يستحيل أن يتيح للمدرسة فرصة أن تربى أبناءها على الابتكار والإبداع، فالابتكار والإبداع ابنان شرعيان للحرية والديموقراطية، لا يعيشان إلا من خلال قدرة على التفكير الناقد، وإطلاق الطاقات الذاتية.

إن خطورة تربية القهر أنها تؤدى إلى تنميط العقول، إنها إعلان صريح بإفلاس قريب للثقافة.

والجديد الثقافى لا يتأتى إلا بالتلاقح العقلى، والتلاقح العقلى، لا يتأتى إلا من خلال حوار، والحوار لا يقوم إلا إذا رفعت السلاسل، وتحطمت القيود، وأبعدت السيوف من على الرقاب، وغاب شبح السجون والمعتقلات!!

والديموقراطية، كما نؤكد مرارا وتكرارا، ليست مجرد نظام للحكم، ولا

هى مجرد مناخ مجتمعى عام، وإنما هى أيضا طريقة فى التعليم ومنهج فى إدارة المدرسة.

فالمعلم الذى يعود تلاميذه على تقديس ما تعلموه شفاهة أو كتابة، يسلسل عقولهم فتعجز عن الانطلاق بحرية، مما يحتم عليه أن يبين لهم أن كل ما هو نتاج بشرى معرض لأن يكون صوابا أو أن يكون خطأ، وأن السبيل إلى الكشف عن هذا وذاك هو التفكير الناقد الذى يجعل القارئ يتساءل دائما بعدما يسمع ويقرأ: هل هذا صحيح؟ والمعلم الذى يتصور نفسه المصدر الوحيد للمعرفة، يقفل الباب على إمكانات الإبداع والابتكار، مما يحتم عليه أن يدفع طلابه ويشجعهم على أن يشاركوه فى جمع المعلومات بأنفسهم من مصادر مختلفة.

وقل مثل هذا فى إدارة المدرسة، وفى إدارة التعليم، وفى تخطيط المناهج، وفى وضع الجداول المدرسية، وفى تنظيم الرحلات والأنشطة، وفى العلاقات مع الأبناء والأمهات... كلها مجالات وفرص ذهبية لممارسة الديموقراطية بحيث تتحول إلى نهج حياتى يسلك الطالب وفقه فتزهر أزهار الثقافة وتثرى.

٤- **إنقاذ اللغة العربية**: ليست هذه نظرة تشاؤمية تلك التى نعبر عنها فى هذا المطلب من منطلق أن اللغة العربية قد أصبحت فى حاجة إلى عملية إنقاذ ونبادر إلى القول بأننا نقصد صورتها الواقعية فى سوق الثقافة العربية المعاصرة، ولا نقصد هذه اللغة فى ذاتها.

إن من المسلم به أن اللغة ليست مجرد أداة اتصال بين المواطنين وبينهم وبين الموروث الثقافى فقط، وإنما هى تعبير كذلك عن نمط معين من التفكير، فتراكيبها صورة للعقل، وبنيتها الكلية تعكس كذلك البنية الفكرية المعبرة عنها.

وفى السنوات الأخيرة، بدأنا نرى زحفا مؤسفا للتعليم باللغة الأجنبية فى مدارس المرحلة الأولى، وقبل أن يتمكن الطفل من لغته القومية، تحت دعوى أن فى ذلك تأهيلا للطالب كى يكون على اتصال وثيق، ومباشر مع ينابيع الحضارة الحديثة.

ولسنا فى مجال يسمح لنا بمناقشة هذه القضية، فلا أحد يعارض أهمية تعلم اللغة الأجنبية لتحقيق هذا الغرض، لكن تحفظنا إنما ينصب على البدء بها فى سنوات التعليم الأولى، لما يؤدى إليه ذلك من إضعاف للغة الأم... اللغة العربية. ونظرة بسيطة إلى مختلف المدارس التى تسير على هذا النهج ستؤكد لنا أن طلابها فى طريقهم إلى أن يكونوا أغرابا عن اللغة العربية. صحيح أنهم سيظلون على معرفة بها، فهى لغة التخاطب اليومى من حولهم، وهى لغة القراءة العامة، ولكن الخشية هى من ضعف تعودهم على الأساليب السليمة والتراكيب الصحيحة والمصطلحات والمفردات الفصحى، مما يجعل اتصالهم بعيون الثقافة الأصلية عسيرا، وهو الأمر الذى أشرنا إليه ونحن نشير إلى تسيد لغة الصحافة فى وسائل التثقيف العام.

وربما يذكرنا البعض بأن مدارسنا فى النصف الأول من هذا القرن كانت تسودها اللغة الأجنبية، ومع ذلك فقد كانت ألسن الطلاب فصيحة واتصالهم قائما ومستمرا بكتابات أساطين الفكر والأدب، ونبادر إلى القول بأننا لا نستطيع أن نغض الطرف عن "المناخ العام" السائد، فلم تكن هناك أجهزة تلفزيونية وفيديو وأجهزة تسجيل تلح على الآذان ليل نهار بأغانى هابطة وكلمات عامية مسفة وحوارات فجة وأفكار غثة، وكانت الصحافة يحررها شيوخ العلم وأئمة الفكر الكبار، مثل طه حسين والعقاد والرافعى وهيكل والمنفلوطى والحصرى وميخائيل نعيمه واليازجى ومى زيادة، وغيرهم كثيرون.

إننى واحد من الناس كثيرا ما أفجع عندما يأتينى، بعض من أدرس لهم فى الجامعة يشيرون إلى كلمات وعبارات غاية فى السهولة والبساطة يتساءلون عن معناها وكأنهم أجانب لا يعرفون العربية، أو كأننا نحن نكتب بلغة أخرى غير العربية، مع أننا ونحن نكتب هذه الكتب، نضع فى اعتبارنا أن معظم مستهلكيها من القراء سيكونون طلابا، وبالتالى نتعمد التبسيط والتوضيح، وهكذا تصبح قراءة كتاب للعقاد، مثلا، عند الجيل الحالى وكأنها سباحة فى المجهول، ويصبح الاطلاع على كتاب لطه حسين وكأنه قفز إلى الظلام!!

بل وماذا نقول وملايين الجماهير تتعرض أحيانا لخطابات من زعامات، بلغة ركيكة، وهى خطابات لا يفلت من سماعها أحد، فضلا عن إعادة إذاعتها ونشرها مرات ومرات، فيشيع الخطأ ويتجذر الانحراف اللغوى!

ثم هذه الإعلانات التى شاعت فيها أسماء، وفى الشوارع، وعلى الحوانيت والمؤسسات والشركات، كلها أسماء أجنبية وغالبا تكتب بالحروف العربية، فلا المشاهد لها يتعرف لغة أجنبية حقيقية، لأنه لا يرى حروفها، ولا هو يتعلم لغة عربية سليمة لأنه لا يرى ولا يسمع نطقها وتراكيبها.

وقل مثل هذا على لغة الإذاعة والتلفزيون، وما يشيع فيها من ألفاظ فجة ولهجات محلية وتراكيب سقيمة، وخاصة فى التمثيليات والأفلام، بل وفى مخاطبة بعض المذيعين للمستمعين والمشاهدين.

إن كل هذه المظاهر الدالة على تدهور اللغة العربية فى مختلف المواقع، يجب أن تستنفر مختلف الجهود لإنقاذها حتى لا تتحول مئات الألوف من الكتب والمصادر الحاوية لكنوز الإبداع والفكر العربى والإسلامى، إلى مومياوات محنطة لا تملك فاعلية، ولا تتجادل مع الواقع، ولا تدخل فى نسيج المثقفين المعاصرين، فضلا عمن نعلمهم من الأجيال الجديدة.

٥- **تنمية القراءة:** نخطئ كثيرا إذا وقعنا فى وهم أن الكتب الدراسية المقررة على الطلاب يمكن أن تكفى لتزويدهم بالكم الضرورى من المعرفة. إن لها وظيفتها المعروفة والتى لا غنى عنها، لكن طلابنا يظلون دائما بحاجة إلى نوافذ أخرى يطلون منها على آفاق معرفة خارج المناهج الرسمية والكتب المقررة.

إن المشكلة الكبرى فى الكتب المدرسية هى أنها (مقررة)، وما هو مفروض علينا قراءته، غالبا لا نقرأه إلا بفتور وتثاقل، ولهذا غالبا ما تنتهى علاقة الطالب به بمجرد أن ينتهى من الامتحان فيه، وأحيانا ما يترسب لديه اتجاه عدائى نحو هذا الفرع أو ذاك، إلى هذا الكتاب أو ذاك، بسبب قد يرجع إلى المعلم، فى شخصه، أو فى طريقة تدريسه، أو فى الكتاب نفسه، أو فى ظروف الامتحان.

أما الكتاب الذى يتناوله الطالب ليقرأه حرا، فهو هنا يمارس فعلا إراديا ذاتيا، مما يجعل ثماره تدخل فى نسيج فكره، وتتفاعل مع مكونات ثقافته، خاصة وأنه ليس أمام شبح الامتحان فيه!!

ولو قمنا بدراسة عينة استطلاعية بين عدد من الرموز الثقافية التى يمكن أن يقال إنها أبدعت وابتكرت وأضافت إلى ثقافتنا، فسوف نجد أنهم جميعا - غالبا - لم يعتمدوا على الكتب المقررة وحدها، وكانت لهم قراءاتهم الحرة التى يطلون من نافذتها على آفاق متعددة تشبع فضولهم المعرفى، وهى التى نمت عقولهم وأثرت تفكيرهم وأغنت ثقافتهم.

وسبل تنمية عادات القراءة والاطلاع الحر، متعددة يمكن أن نشير إلى بعض منها:

- فهناك قراءات متصلة بالموضوعات التى يدرسها الطلاب، يمكن أن يشجعوا عليها من خلال مصادر أخرى، سواء فى الصحف أو المجلات أو الكتب المتعددة التى تتناول هذه الموضوعات، على أن تكون هناك إثابة جيدة لتشجيع أكبر عدد ممكن من الطلاب على سلوك هذا السبيل وعلى تعزيز جهود من يفعلون، فضلا عما يؤدى إليه هذا من توسيع أفق المعرفة نفسها وترسيخ ما هو أساسى فيها، ومفاهيمها، والاطلاع عليها فى صيغ متعددة وأساليب مختلفة.
- وهناك - بطبيعة الحال - تلك الحصة الشهيرة التى تقدم ضمن حصص تعليم اللغة العربية، وهى حصة القراءة، التى لا تحظى بما تستحقه من اهتمام وتقدير، إذ لماذا لا نجد فيها هامشا حرا للطلاب أنفسهم يختارون ما يريدون، ويكون ما يختارونه جزءا من المادة المعرفية التى يقيّمون فيها؟
- ويمكن أن يكون هناك وقت خاص لا يقع تحت مظلة مقرر اللغة العربية يخصص للقراءة عامة سواء فى هذا الفرع أو ذاك من فروع المعرفة المختلفة، ويكون هناك أيضا سبيل ما كى يدخل الجهد المبذول فى هذا الشأن فى تقييم الطلاب.

لكن هذا وذاك من سبل، يصعب تحقيقها كما نتمنى أن تكون إذا لم يتوافر لكل مدرسة مكتبة وافية ذات مكان متسع وتجهيزات مناسبة وعاملين متفرغين متخصصين، بدلا مما نشاهده الآن فى كثير من المدارس حيث نرى مكتبة فقيرة الكتب، فقيرة الأثاث، مغلقة فى معظم الأوقات، يتولى مسئوليتها أحد المدرسين، غير المتفرغين لها، أو أحد الموظفين المكلفين بأعمال أخرى.

إننا بحاجة إلى النظر إلى المكتبة المدرسية نظرتنا إلى المعمل وإلى قاعة الدرس، فإذا كنا لا نتصور إمكان تعليم تاريخ ورياضيات ولغة من غير قاعة درس، ولا نستطيع تصور إمكان تعليم فيزياء وكيمياء من غير معمل، فلابد أن نؤمن كذلك بأن تعليم هذا وذاك عسير أن يتم على وجهه الأكمل إن لم تكن هناك مكتبة تثرى بكتب متعددة فى فنون معرفية مختلفة تجذب الطلاب إلى القراءة وتغرس بينهم عاداتها فيظلون، بعد التخرج، على اتصال دائم بالمعرفة ويتحقق فيهم وصف الرسول ﷺ بأن يكونوا أحد منهومين لا يشبعان: طالب علم وطالب مال.

٦- **التسابق الثقافى**: هناك بلدان عربية متعددة تقيّم سياستها فى القبول بمراحل التعليم المختلفة وفقا لما يشبه نظام المسابقات، فليس كل الناجحين فى الثانوية العامة يقبلون بمعاهد وكليات التعليم العالى، وإنما تحدد أعدادًا تقل عادة عن مجموع الناجحين، ثم يرتبون فى أفضلية القبول بحسب درجاتهم التى حصلوا عليها. ونفس الأمر يحدث بالنسبة للمنتهين من مرحلة التعليم الأساسى.

معيار التفضيل إذن هو (التحصيل المعرفى) المعبر عنه بنتيجة الامتحانات. وهناك بلدان كانت - ولا تزال عند البعض - تفسح المجال لنسبة من المقبولين لمن يثبت تفوقهم الرياضى.

وسؤالنا هو: ألسنا على يقين شبه تام من أن نتيجة الامتحانات إنما تقيس بعدا واحدا من أبعاد تربية الشخصية وهو البعد المعرفى، حتى فى أدنى مستوياته وهو مستوى التذكر والحفظ؟

وإذا كان الأمر كذلك، ألم يحن الوقت لكى نفسح مساحة لصور أخرى من التفوق، ولتكن هذا الذى نسميه التفوق الثقافى؟

إننا نذكر أن قد كان هناك نظام فى مصر حتى أول الخمسينيات، تنظم فيه مسابقة ثقافية لطلاب الثانوية العامة يحدد لهم فيها عدد من كتب عيون الثقافة: ديوان شعر كامل لأحد كبار الشعراء، مسرحية شعرية كبيرة، كتاب فى التاريخ لواحد من كبار المؤلفين.... وهكذا بحيث كان الناجحون فى هذه المسابقة، بمستويات متفق عليها، يلتحقون بالجامعة مجانا، حيث كان التعليم الجامعى بمصروفات.

فلماذا لا نفكر فى نظام مشابه، نقدمه للطلاب المنتهين من التعليم الأساسى، وكذلك طلاب الثانوية العامة، نحدد فيه مجموعة من الكتابات ذات المستوى الرفيع، تغطى قطاعات ثقافية متنوعة، بحيث يتيح لهم التفوق فيها أن يحظوا بنسبة معينة من المجموع المسموح لهم بالالتحاق بالمرحلة التالية ومجانا؟

إن التمكن الثقافى العام مكون مهم من مكونات التنشئة المتكاملة للشخصية، ومن ثم لا ينبغى أن يزاح جانب لينفرد التمكين المعرفى وحده، القائم على الحفظ والاستظهار لمجموعة من المقررات الدراسية بأن يتسيد تربيتنا لأبنائنا.

صحيح أن الذى يقرأ ويطلع ويتثقف يفعل ذلك عادة دون انتظار (لثمن) ما يفعل من أحد لأنه يدرك أنه يحصل فى التو واللحظة، وبطريق ذاتى خاص، على الثمن الأعظم: سعة أفق، ثراء فكرى، إشباع لميول حب الاستطلاع، رجاحة عقل، مرونة فى التفكير.. إلخ. لكننا مع ذلك نظل فى حاجة إلى (دعم) هذا الاتجاه وتعزيزه وترغيب الآخرين الذين يهملون سلوك هذا السبيل.

والتسابق الثقافى ليس مطلوبا عند نهاية المراحل التعليمية فقط، وإنما هو مطلوب فى كل سنوات الدراسة، وهو أمر نلمسه أحيانا فى بعض المدارس والجامعات، ولكنه يظل فى حاجة إلى تنشيط وتكثير وإذاعة ونشر، فضلا عن دفع الجوائز والمكافآت المرصودة للفائزين، لأن البعض منها مازال هزيلا لا يستثير الطلاب كى يقتحموا هذا المجال الفسيح المثقف!!

٧- **التلقيح الفكرى**: ومدارسنا تستطيع أن ترد منهلا عذبا مهما يمكن ألا يكلفها أو يكلف طلابها ما قد تكلفه المسابقات وإنشاء المكتبات، وما إلى هذا وذاك من سبل وشروط أسلفناها، وذلك بأن تدعو إلى لقاءات ثقافية بين طلابها وهيئة تدريسها، وبين رواد الحركة الثقافية فى مجالاتها المختلفة، لا لمجرد أن يلقى هؤلاء محاضرات، وإن كانت ضرورية وملحة ومطلوبة، ولكن الأهم من هذا وذاك، ذلك الحوار الذى يمكن أن يقوم به الطلاب مع هؤلاء الرواد.

وعلى سبيل المثال، تستطيع مدرسة أن تدعو فنانا مشهورا فى المجال المسرحى، قد يكون مخرجا أو مؤلفا أو ممثلا أو ناقدا، وكذلك بالنسبة للسينما وبالنسبة للتليفزيون وحبذا لو اجتمع أكثر من واحد من هؤلاء فى لقاء واحد ويقوم الواحد أو الأكثر بإلقاء كلمة يعقبها الحوار المنشود، فها هنا تتاح الفرصة للخبرة المباشرة، وحل بعض الألغاز التى قد ترقد فى أذهان بعض التلاميذ، متصلة بهذا الأمر أو ذاك.

وتستطيع مدرسة أخرى أن تدعو كاتبا كبيرا فى الصحافة، أو روائيا مشهورا، أو شاعرا معروفا لتحقيق نفس الأهداف.

ولا يقتصر الأمر على مثل هذه اللقاءات مع أقطاب الفن والأدب، وإنما يمكن أن تمتد لتشمل كذلك لقاءات مع بعض الأطباء الذين يتحدثون فى شئون جسم الإنسان: صحته ومرضه، ويجيبون عن تساؤلات الطلاب.

ويمكن أن تكون هناك لقاءات متعددة مع أساتذة فى علم النفس، وخاصة بالنسبة لطلاب المدرسة الثانوية، حيث من المؤكد أنهم يواجهون كما غير قليل من المشكلات التى تؤرقهم، ويشغل أذهانهم العديد من التساؤلات التى تتصل بمشكلات المراهقة، والمسألة الجنسية التى نخطئ كثيرا عندما نتجاهل فى برامجنا الدراسية الحديث عنها حديثا علميا منهجيا، فتكون هنا فرصة الحوار والمناقشة، بدلا من أن يبحثوا عن إجابات لتساؤلاتهم عن طريق خبرة الانحراف أو أصدقاء السوء!

وصحيح أن الطلاب يدرسون تربية دينية، لكن هناك كما من التساؤلات التى تدور، حتى فى أذهان الكبار، يبحثون لها عن إجابة، فيكون اللقاء مع أحد علماء الدين

ليشبع نهم السائلين خاصة وأننا نلاحظ هذا التنامى المستمر فى الاتجاه نحو التدين، وما قد يحدث تحت مظلته فى بعض الأحوال من صور انحراف، نخطئ كثيرا فى مواجهته فقط بالأسلوب الأمنى العنيف فتجىء هذه اللقاءات وتلك الحوارات فرصة ذهبية لتأكيد قاعدة الجدال بالتى هى أحسن، والسعى نحو مزيد من التنور الدينى الذى يمكن أن يحول اتجاه التدين إلى طاقة تقدم وتفعيل لقدرات المجتمع، حتى يستحق الإنسان أن يكون بالفعل خليفة الله على الأرض، فيقوم بما يجب عليه من واجبات الإعمار.

وعلى الرغم من أن الطلاب عادة، باعتبارهم فى مرحلة طلب العلم، لا يحتكون بمواقع العمل التنفيذى فى المصالح والإدارات والشركات، إلا أننا يجب ألا ننتظر حتى يكبروا ويتخرجوا ليواجهوا هذا العالم بأنفسهم دون خبرة سابقة. وهنا يمكن استضافة بعض المسئولين، فقد يكون اللقاء مع أحد مسئولى المرور، أو أحد ضباط الشرطة فى أحد الأقسام أو أحد المسئولين عن واحد من القطاعات الاقتصادية... وهكذا.

إننا، بهذه السبل، نفتح عقول التلاميذ لتلتقى بمختلف عقول القيادات الفكرية والفنية والتنفيذية فى المجتمع الذين يعيشون فيه، حتى يحدث الالتحام وتتفاعل الخبرة النظرية مع الخبرة العملية فتفرز ثقافة متكاملة سوية، لا تكون نبت كتب أو أوراق فقط، وإنما نتيجة تفاعل وتلاقح وجدل بين العلم والخبرة، بين الفكر والعمل، بين النظر والتطبيق، وهذا هو الترجمة العملية لذلك الشعار الذى رُفع فى الولايات المتحدة الأمريكية منذ سنوات، مطالبا بأن يكون الجميع معلمين، لا أن تقتصر مهمة التعليم على مدرسى المدارس وحدهم.

٨- **الوعى البيئى**: فمن الغريب حقا، أن تتعالى الأصوات فى الفترة الحالية منادية بخطورة ما يحدث للبيئة من تلوث ومن تخريب، وأهمية نشر الوعى البيئى، ثم نرى اختفاء لشعار كنا نتعلم تحت ظلاله ونقرأ عنه منذ ما يقرب من ثلاثين عاما فأكثر، ألا وهو أن المدرسة (مركز إشعاع)، بمعنى ألا يقتصر دورها على تعليم

وتثقيف طلابها داخل أسوارها، داخل الفصول والقاعات والمعامل، وإنما لابد من خروجها إلى البيئة المحلية.

أفلسنا نحن الآن أشد حاجة إلى العودة إلى رفع هذا الشعار مع ترجمته ترجمة عملية فى ضوء ما استحدث على الساحة التربوية والاجتماعية؟

إن طلاب المدارس والجامعات، إذا كانت حياتهم تشير إلىأنهم فى مرحلة "الاستهلاك" و"الأخذ"، فإن أبواب "العطاء" ومسالك "الإنتاج" يمكن أن تستفيد من أى مرحلة عمرية وفقا لظروفها، حتى ينشأ المواطن، منذ البداية على نهج العطاء الوطنى، وينشأ ملتحما بمشكلات المنطقة التى يعيش فيها.

وأشهر ما يمكن أن يذكر هنا هو هذه الجماهير الغفيرة من الأميين الذين يحيطون بمعظم المدارس فى أى بلد عربى، فلماذا لا تقوم مشروعات فى العطلة الصيفية، كى يساهم كبار التلاميذ، وخاصة فى المرحلة الثانوية، فى محو الأمية؟

وهناك، فى المدن الكبرى، خاصة، أزمات مرور، قد تنوء بعبء مواجهتها قدرات رجال المرور أنفسهم، ربما من الناحية العددية على أقل تقدير، فها هنا يستطيع كبار التلاميذ، فى المرحلة الثانوية أن يساهموا فى هذا الشأن.

وقل مثل هذا بالنسبة لبعض الجوانب الصحية...

أما ما يمكن أن يقوم به طلاب المدارس الزراعية والمدارس الصناعية، والمدارس التجارية، فهو أكثر من أن يعد ويحصى.

وقد نبدو وكأننا خرجنا عن "الدور التثقيفى"، لكن هذا لم يحدث، ففضلا عما حددناه بداية من معنى للثقافة، فنحن هنا لا نقصد بكل هذه الأمثلة مجرد المشاركة العملية وإنما نقصد ما تتطلبه هذه المشاركة من معلومات ومعارف، وما تغرسه من قيم، وما تشيعه من مفاهيم، فيجىء التثقيف - كما أكدنا مرارا - من مواقع الخبرة العملية، ويصبح المثقف هنا ليس هو "المنظر" و"المفكر"، وإنما هو المواطن المسئول الذى تتسع دائرة همه لتشمل هموم أمته جميعا!

مؤسسات تربوية تعزز الدور التثقيفى للمدرسة :

عندما نتحدث عن الدور التثقيفى للمدرسة، فالحق أننا بالضرورة نتحدث عن دور المعلم بالدرجة الأولى، فهو الشخص الذى ينيبه المجتمع ممثلا فى سلطته التعليمية، كى يقوم بالمساهمة فى تحقيق مختلف الأدوار المنوطة بالمدرسة، والأهداف والوظائف التى تسعى إليها، وبالتالى فإن قيام المدرسة بالدور التثقيفى يستلزم، إلى حد كبير، الالتفات إلى المؤسسة الأساسية التى تعد هذا المعلم، وكذلك إلى بعض الجهود التى يمكن أن تعزز من هذا الدور، وخاصة تلك التى تتصل بالعلوم التربوية والنفسية:

١- إن أول ما نشير إليه فى هذا السبيل هو أن كليات التربية تخطئ كثيرا إذا تصورت أن وظيفتها هى مجرد إعداد طلابها كى يستطيعون أن يعلموا هذا الفرع أو ذاك من فروع المعرفة سواء بتعليمه المادة العلمية المكونة لهذا الفرع أو بتعليمه "الطريقة" اللازمة للتعليم وما يتصل بها من علوم تربوية ونفسية.

إن المجتمع كثيرا ما يحفل بالعديد من المشكلات والقضايا الكبرى ذات العلاقة الوثيقة بعلوم التربية والنفس، وعددا من المشكلات التعليمية، وهذا وذاك يجب أن تتصدى له كليات التربية بالبحث والدرس والمناقشة والمشاركة، فمثل هذا التوجه هو الذى يجعل من الجهد التربوى تربية للنضال الاجتماعى وليس مجرد إعداد للتوظيف الحكومى.

وإذا ضربنا أمثلة لبعض المشكلات والقضايا التى نعنيها فسوف تكون (الأمية) على رأس القائمة، فهى ليست مشكلة تعليمية بحتة، وإنما هى قضية ثقافية قومية بالدرجة الأولى. صحيح أن مسئوليتها لا تقع على عاتق كليات التربية وتخص المجتمع ككل، لكننا لا نستطيع أن ننسى جانبها "الفنى" الذى تستطيع كليات التربية أن تسهم فيه بجدارة كإعداد الكتب الخاصة بتعليم الأميين وإعداد المعلمين وإرساء القواعد السليمة لطرق تعليم الأميين... وهكذا.

إن اضطلاع كليات التربية بمثل هذا الجهد عن طريق أعضاء هيئة التدريس بها وطلابها المعلمين، من شأنه أن يجعل هؤلاء الطلاب فى قلب القضية وذوى خبرة

بها وحماس فى مواجهتها، فإذا تخرجوا معلمين بالمدارس، يستطيعون أن يستمروا فى مواصلة الجهد وبالتالى تتواكب الجهود وتتكاتف: من المدارس وكليات التربية لمواجهة هذا "العار" المهين الذى لا ندرى كيف يفزعنا احتلال جيش أجنبى قطعة أرض من تراب الوطن، ولا يفزعنا فى الوقت نفسه احتلال عدو لدود للوطن، وهو "الجهل" عقول أبنائنا.

٢- إن التكوين الثقافى لطلاب كليات التربية المعلمين بحاجةإلى مراجعة وإعادة نظر، فغنى عن البيان، أن إعداد المعلم عادة ما يتناول ثلاثة مجالات: الإعداد الأكاديمى عن طريق تزويد الطلاب بالمعارف المختلفة الخاصة بالتخصص الذى سيقوم بتعليمه، والإعداد المهنى، وذلك بتزويده بعدد من العلوم التربوية والنفسية، والتدريب العملى على عملية التدريس بالمدارس، ثم الإعداد الثقافى، وهو بيت القصيد هنا. وبطبيعة الحال، فإن المجال الأول يستأثر بنصيب الأسد، يليه الثانى، أما الثالث، فلا يبقى له إلا الفتات!!

ومع ذلك، فمازلنا نشعر بأن هذا المجال التثقيفى لا يحظى بالعناية الكافية، وهو يتحول فى التطبيق والتنفيذ إلى مسائل شكلية، كأن يتحول إلى تعليم لغة، بصورة هزيلة قد تنحصر فى دراسة كتاب أدبى، وقد تتحول العملية إلى عملية (تلقين) سياسى.

إننا بحاجة إلى أن ترتفع نسبة هذا المجال عما هى عليه الآن، وتتحول إلى (حبل سرى) يربط ما بين طلاب كليات التربية ومصادر الثقافة المختلفة فى المجتمع، بحيث يطالبون - مثلا - بمتابعة ما ينشر فى الصحف والمجلات عن قضايا الثقافة والتعليم، وكذلك ما يذاع فى كل من الإذاعة والتليفزيون، وبحيث يطالبون بممارسة أنشطة صحفية داخل كلياتهم مثل مجلات الحائط، يكتبون فيها ويحررون حوارات ويتنافسون، ويلقون كلمات فى مناسبات متعددة أمام أساتذتهم وزملائهم ويستضيفون قيادات فكرية وثقافية فى ندوات عامة تقام بكلياتهم.. إلى غير هذا وذاك من أنشطة مشابهة.

٣- وكثيرا ما نلاحظ، سواء بالنسبة لبحوث أعضاء هيئة التدريس أو بالنسبة لبحوث رسائل الماجستير والدكتوراه أن الاهتمامات الخاصة بالعلم التربوى من الناحية

الفنية هى التى تستحوذ على الكم الأكبر. إن ذلك ضرورى ولابد منه - بطبيعة الحال - لكن الاقتصار عليه وتسيده، يغلق دائرة العلوم التربوية على نفسها، ويجعل تكويننا للطالب المعلم على نفس الصورة من الانغلاق التخصصى العلمى الذى قد يحدث فى كليات الجامعة المختلفة وفى مراكز البحوث، ولكنه يعد معيبا لتكوين الطالب المعلم.

فها هنا نعيد التذكير بالمنظور الثقافى الذى سبق أن أشرنا إليه من قبل. وقد بدأت بعض كليات التربية - فى مصر مثلا - بالفعل تطرق مجالات ذات أبعاد ثقافية عامة، كما رأينا فى رسائل ماجستير ودكتوراه عن برامج متعددة فى التليفزيون والسينما: فهذا يحلل البرامج الدينية ليقف على مفاهيم وأهداف تربوية من خلالها، وذاك يحلل برامج الأطفال ليستخرج ما تبثه من قيم تربوية.

وهناك من درس المسرح الخاص بالأطفال، ومن درس المضمون التربوى لعدد من الأفلام السينمائية.

وهناك من قام بتحليل مضمون مجموعة من الروايات الأدبية العربية على مدى فترة من الزمان ليستخرج منها أهم الاتجاهات التربوية فى هذا المضمون.

وهناك من قام بتحليل اتجاهات الصحف اليومية نحو قضايا الفكر التربوى الإسلامى، وآخر عن اتجاهات الصحف الحزبية نحو قضايا التعليم الجامعى.

وإذا كانت هذه عينة مما يتصل بوسائل التثقيف الجماهيرى، فهناك عينة أخرى لا تحصر جهدها فى البحث على مؤسسات التعليم وإنما تنطلق إلى شرائح اجتماعية متعددة، مثال ذلك، دراسة الاحتياجات التربوية لعمال الزراعة، والاحتياجات التربوية للمرأة البدوية، والاحتياجات التربوية للمرأة كأم، والاحتياجات التربوية لعمال الصناعة، ولعمال الخدمات، وللمجتمعات العمرانية الجديدة... وهكذا.

إن مثل هذه الجهود عندما تتكاثر فى كليات التربية وتحظى بالاهتمام ويسلط عليها

الضوء، فإنها يمكن أن تغذى الفكر التربوى داخل هذه الكليات برؤية ثقافية واسعة تجعل من عملية إعداد المعلم عملية تكوين ثقافى أساسية، فتمد المعلم بالتالى بالمقومات اللازمة كى يقوم هو بدوره التثقيفى داخل المدرسة، لا كجهد إضافى وإنما على أساس أنه هو قلب العمل التربوى.

٤- وكليات التربية، من خلال أعضاء هيئة التدريس بها، ومن خلال طلاب البحث التربوى العلمى فى الدراسات العليا، مطالبون بالوقوف موقفا نقديا من القضايا التعليمية سواء تلك التى تجىء جزءا فى المقررات التى يتعلمها الطلاب أو تلك المثارة على الساحة الثقافية العامة.

والموقف النقدى لقضية تربوية ما يقتضى - ضمن ما يقتضى - الوعى بأن المسألة التربوية لها جذورها الممتدة فى التربة الاجتماعية، ولها روافدها التى قد تختفى فى تراث الأمة الثقافى، ولها فروعها التى تتصل ببنية الفكر القومى عامة. وعلى هذا، فإن التناول النقدى يفرض معالجة لا تقف عند الأسباب والعلل المباشرة وإنما تمتد أفقيا لتشمل مجالات متعددة، كما تمتد رأسيا لتبحث عن الأسباب والعلل البعيدة.. ولا نقصد بطبيعة الحال ما يبعد عن الواقع ونبض الخبرة، وإنما نقصد التعمق وعدم الاكتفاء بالنظرة العاجلة والنظر السطحى.

٥- وإذا كان كل ما سبق قد خصصنا به كليات التربية، فإن هناك جهات أخرى متصلة لابد وأن تكون لها مشاركتها فى التكوين الثقافى للمعلم، ويأتى فى مقدمة هذه المؤسسات نقابات المعلمين وجمعياتهم المهنية والعلمية. إن التنظيمات النقابية للمعلمين ترى من واجبها - وهذا حق وضرورة - أن ترعى شئون العاملين المعلمين من حيث السكن والترفيه والخدمات الصحية والاجتماعية، والتأمين والمعاشات، لكنها - فى الغالب والأعم - لا تولى الجانب التثقيفى ما يستحقه من عناية واهتمام، وإن حدث فكثيرا ما يجىء فى هذه الصورة الممسوخة التى تحوله إلى مجرد تلقين سياسى وصورة إعلانية فجة.

إنه لمن العسير علينا أن نتصور إمكان قيام المدارس بدورها التثقيفى، ونحن نرى

كثيرا من التنظيمات المهنية لا تقوم بمثل هذا بالنسبة لمعلميها، وإلا فسوف نقع فى ذلك الخطأ الفاحش، أن نتصور إمكان قيام فاقد الشيء بإعطائه لآخرين!!

ويطول بنا المقام لو حاولنا أن نسوق الأمثلة للجهود التى يمكن أن تبذلها هذه التنظيمات فى هذا المجال.

والشيء نفسه بالنسبة للجمعيات العلمية التربوية والنفسية التى قد يغلب على أنشطتها الطابع الأكاديمى البحت الذى يحصر جهدها فى عمليات البحث العلمى التربوى والنفسى. إن هذا أيضا ضرورى ومطلوب، لكنها مطالبة بأن تزيد على ذلك، هذا الجهد الفكرى الثقافى العام الذى يؤدى إلى التنوير.

ودون أن نقع فى محظور الدعاية أوالحديث عن النفس، فإننا نشير هنا إلى مثال تطبيقى عن إحدى الجمعيات التربوية. ويعفينا من الحرج أنها تنظيم أهلى حر، يقوم على الجهد التطوعى، ولا يستهدف ربحا ولا موقعا تنفيذيا، وبالتالى فاستهداف الدعاية غير وارد.

فلقد حرصنا منذ عام ١٩٨٤ عندما بدأنا نعاود تنشيط رابطة التربية الحديثة التى كانت قد أنشئت بالقاهرة عام ١٩٣٨ على الدور التثقيفى، إذ دعونا مختلف القيادات الحزبية، فى أوقات متعددة، كى نناقشهم موقف كل حزب من قضايا التعليم.

كذلك دعونا العديد من مختلف القيادات الفكرية والثقافية، ويكفى أن نسوق هنا بعضا من أسماء هؤلاء: أحمد بهاء الدين - د. اسماعيل صبرى عبد الله - د. عبد العظيم أنيس - فهمى هويدى - د - عبد الصبور شاهين - د.أحمد كمال أبو المجد - د. محمد سليم العوا - د. نعمات أحمد فؤاد - د. محمد نور فرحات - د. يحى الجمل - د. حامد عمار - د. محى الدين صابر - محمود أمين العالم - د. محمد عمارة - راجى عنايت - فريدة النقاش - طارق البشرى - د. محمد السيد طنطاوى - السيد ياسين - عادل حسين - عمر التلمسانى - د. حازم الببلاوى - د. رمزى زكى - د. إبراهيم العيسوى - د.فؤاد زكريا - د.حسن حنفى... إلخ.

ومجموعة من الشعراء مثل - فاروق شوشة - محمد إبراهيم أو سنه - أحمد سويلم.

ومجموعة من الفنانين مثل: صلاح أبو سيف - ماجدة - محمود الحديني - سعد أردش.

وحرصت مجلة (دراسات تربوية) التى كنا نصدرها تحت مظلة الرابطة منذ عام ١٩٨٥، على أن تضمن كل عدد منها إعادة نشر مقال غير معروف، من صحف ومجلات قديمة، لواحد من كبار المفكرين يتناول مسألة تتصل بالتعليم أو عموم الفكر والثقافة، فنشرت لـــ: طه حسين - أحمد أمين - عباس محمود العقاد - حسن البنا - سيد قطب - سلامة موسى - محمد عبد اللطيف دراز - أحمد فؤاد الأهوانى - عثمان أمين - محمد حسين هيكل - مصطفى زيور - عبد الرحمن بدوى - زكى نجيب محمود - عبد السلام هارون - محمد مندور.. إلخ.

كما حرصت هذه المجلة على أن تضمن كل عدد مقالا على الأقل - فى مسائل فكرية عامة أيضا، بحيث لا تقتصر فى مجموع ما ينشر بها - كما هو شائع فى المجلات المتخصصة - على البحوث والدراسات الأكاديمية البحتة.

وما لا يقل عن ذلك أهمية أيضا هو ذلك الطابع العمومى العام الذى غلب على المؤتمرات السنوية التى نظمنّاها أيضا تحت مظلة الرابطة مثال ذلك:

- الديموقراطية والتعليم.
- نحو رؤية نقدية للفكر التربوى العربى.
- نحو مشروع حضارى تربوى لمصر.
- السياسات التعليمية فى الوطن العربى.. وهكذا.

إن مثل هذه الجهود هامة وأساسية نظرا لما نلمسه عادة من أن الجهد التطوعى الحر أكثر تأثيرا على حركة الفكر، بحكم لارسميته، وتشربه بالممارسة الديموقراطية، ومن شأن هذا أن يشيع مناخا عاما بأن المسألة التعليمية، وبأن المؤسسات التعليمية

هى جزء أساسى من النسيج الثقافى العام، وأن حركتها ينبغى أن تتناغم مع حركة المؤسسات الثقافية كافة لتكون المحصلة النهائية حركة ثقافية عامة تتسم بالحيوية وتنتهج التجديد، وتبث الأمل فى إمكان مستقبل أفضل.

ونكرر إيماننا بأن مثل هذه الجهود التى نشير إليها، سواء بالنسبة للمدرسة أو بالنسبة لكليات إعداد معلم المدرسة، أو بالنسبة لتنظيمات المعلمين المهنية أو لجمعياتهم العلمية، ليست جهدا زائدا مضافا، وإنما هى من صلب المهمة التربوية، وركن أساسى من مفهوم التربية.

قراءات مختارة

١- إبراهيم ناصر: الأنثروبولوجيا الثقافية. عمان، جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٨٥.

٢- أحمد شوقى: هندسة المستقبل، القاهرة، المكتبة الأكاديمية، ١٩٩٢.

٣- آفنزيني، غى: الجمود والتجديد فى التربية المدرسية، ترجمة عبد الله عبد الدايم، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨١.

٤- أولفابنكس: اجتماعيات التربية، ترجمة محمد المرصفى، د.ن، جده، ١٩٨٨.

٥- توفلر، ألفين: صدمة المستقبل، ترجمة محمد على ناصف، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٧٤.

٦- حامد عمار: فى تطوير القيم التربوية، رأى آخر، القاهرة، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢.

٧- حامد عمار: التنمية البشرية، القاهرة، دار سينا، ١٩٩١.

٨- حسن حسين البلاوى وآخرون: دراسات فى أصول التربية، الدوحة، دار الثقافة ١٩٨٩.

٩- حسن حسين البلاوى وآخرون: فى اجتماع المدرسة، سلسلة قضايا تربوية(١١)، القاهرة، عالم الكتب، إشراف د. سعيد اسماعيل على، ١٩٩٣.

١٠- ديوى، جون: الديموقراطية والتربية، ترجمة متى عقراوى وزميله، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة، ١٩٥٤.

١١- سعد مرسى أحمد: التربية والتقدم، القاهرة عالم الكتب، ١٩٧٠.

١٢- سعيد اسماعيل على: الأمن التربوى العربى، القاهرة، عالم الكتب، سلسلة قضايا تربوية (٣) ١٩٨٩.

١٣- سعيد اسماعيل على: نظرات فى الفكر التربوى، القاهرة، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢.

١٤- سمبسون، رونالد د: العلم والطلاب والمدارس، ترجمة عبد المنعم محمد حسين، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩.

١٥- عبد العزيز القوصى: تقرير لجنة دراسة معوقات القراءة والكتابة فى التعليم الابتدائى، القاهرة، المركز القومى للبحوث التربوية، ١٩٨٠.

١٦- عبد الله عبد الدايم: الثورة التكنولوجية فى التربية العربية، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٨.

١٧- عبد الله عبد الدايم: نحو فلسفة تربوية عربية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩١.

١٨- كمال نجيب: المدرسة والوعى السياسى، الإسكندرية، دار النيل، ١٩٩٢.

١٩- كومز، آرثر: خرافات فى التربية، ترجمة عبد المجيد شيحه، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٩٠.

٢٠- لفيف من خبراء اليونسكو: التنمية الثقافية، ترجمة سليم مكسور، بيروت، المؤسسة العربية، للدراسات والنشر، ١٩٨٣.

٢١- لوساتو، برونو: تحدى المعلوماتية، ترجمة عبد اللطيف أفيونى، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٣.

٢٢- ماتشادو، لويس ألبرتو: الذكاء حق طبيعى لكل فرد، ترجمة عادل عبد الكريم، قبرص، دار الشباب، ١٩٨٩.

٢٣- محمد الهادى عفيفى: فى أصول التربية، الأصول الثقافية، القاهرة، الأنجلو المصرية، طبعات مختلفة.

٢٤- مراد وهبه: الإبداع والتعليم العام (ندوة)، القاهرة، المركز القومى للبحوث التربوية والتنمية، ١٩٩١.

٢٥- هادى نعمان الهيتى: ثقافة الأطفال، الكويت، سلسلة عالم المعرفة (١٢٣)، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، مارس، ١٩٨٨.

٢٦- مجلة دراسات تربوية، القاهرة، رابطة التربية الحديثة، عالم الكتب، أعداد متفرقة.

الإنسان: المبدأ... والمنتهى:

ليس عسيرا على المستقرئ لمجمل تاريخ الإنسان الحضارى أن يلحظ ذلك السعى المستمر والدءوب لهذا الإنسان من أجل (حياة أفضل).. نسوق هذا المصطلح على الرغم من وعينا بما يبدو عليه من "سيولة معنى"، لكننا آثرناه على تعبيرات أخرى تستخدم لنفس الغرض كالقول "بالسعادة" أو تحقيق قيم الحق والخير والجمال، ذلك أن السقف الغائى للإنسان متحرك دوما إلى أمام، تحدد حركته، القدرات القائمة والمتغيرات الحادثة والطاقات المتوافرة والأحلام الحاصلة، وهكذا تكون "الحياة الأفضل" لإنسان الحضارات القديمة، ربما أقل مستوى من الحد الأدنى لإنسان حضارات تالية.

ومن أجل الحياة الأفضل كانت كل هذه المظاهر الحضارية التى شهدها تاريخ البشر وتطور المجتمع الإنسانى.

وقد اصطلح على تسمية هذا الجهد المستمر من أجل حياة أفضل بأنه "تنمية".. وعندما "أشبع" العلماء والباحثون مفهوم "التنمية" فى مظاهره المتعددة واجهتهم تلك الحقيقة الكبرى ألا وهى أن "الإنسان" هو جوهر التنمية وهو محركها الأساسى، وهو فى الوقت نفسه "محطة الوصول" بالنسبة لها مما أبطل ذلك الفصل غير الواقعى بين "تنمية اقتصادية" و"تنمية اجتماعية" حيث إن التنمية هى تنمية إنسان من خلال مسالك وطرق متداخلة متشابكة من الموارد والطاقات والعناصر، مثل الموارد الطبيعية أو المعرفة والقيم والأجهزة والمعدات والاتجاهات والأفكار، وغير هذا وذاك مما هو ضرورى لتفعيل التنمية وتقدمها[1].

(١) حامد عمار: التنمية البشرية فى الوطن العربى. القاهرة، دار سيناء، ١٩٩٢، ج١، الفصل الثانى.

ولم تغب هذه المعانى عن الوثائق العربية الرسمية، وإن اختلفت الصياغات اللفظية والمبررات الاجتماعية والأسانيد العلمية فى هذه الوثيقة أو تلك مما يدعم "منطقية" مقولتنا ومتانة الأسس التى تقوم عليها[٢].

لكن الآفة الشهيرة تأبى إلا أن تظهر لنا هنا أيضا، ونعنى بتلك "الآفة" تلك المفارقة الحادة بين عبارات ذات وجاهة منطقية ورنين لفظى عال، وبين المقابل لها فى حركة الواقع الاجتماعى العام، هذا الواقع الذى تشير إليه بأسى كلمات فهمى هويدى التى يذهب فيها إلى[٣] "إن تقارير لجان حقوق الإنسان ومنظمة العفو الدولية عن سنة ١٩٩٠ تشهد بألف واقعة ودليل على أن مؤشر إهدار كرامة الإنسان العربى متصاعد بصورة لافتة للنظر. إن التقدم الذى أحرزه العالم على ذلك الصعيد، اقترن عندنا بتراجع محزن فى العديد من أقطار العالم العربى فقتل الأبرياء مستمر، واختفاء المعارضين قائم، والمحاكمات الصورية، والتهم الملفقة، وانتهاك القوانين السائدة المتعلقة بالحريات".

ومثل هذه الصورة المحزنة من شأنها أن تحاصر، وتضعف، بل وتميت دوافع الإنسان وطاقاته التى هى المحرك الأساسى للتنمية، فضلا عن أنها تسقط قيمة ثمرات هذه التنمية، إذ ماذا تكون جدوى طعام وشراب، أو ملبس ومسكن، إذا أهدرت كرامة الإنسان أو إذا ما عاش سجينا للخوف، وإذا ما ظل مهددا بفقد الحياة نفسها لا لجرم ارتكب أعقبه حكم قضائى عادل، وإنما "لرأى" ساقه جاء مخالفا لتوجهات النظام القائم؟!

إننا عندما نذهب إلى أن الإنسان هو "المبتدأ" فإنما نعنى بذلك عددا من الحقائق:

- فالإنسان هو الذى "يحتاج".. والحاجة كما هو شائع "أم الاختراع".
- وهو، إذ يتحرك، يتحرك "بدوافع" إنسانية سواء منها ما هو فطرى موروث أو اجتماعى مكتسب.
- وهو، الذى "يفكر" و"يكتشف" و"يتخيل" و"يخطط" لعمليات التنمية المختلفة.

---

(٢) K.W Fischer & Alazarsan, Human Development, W.H. Freeman & Co., New York, 1984

(٣) الأهرام فى ١٩٩١/١/١.

وعندما نذهب إلى أن الإنسان هو "المنتهى" فإنما نعبر بذلك عن تلك المعانى المتعددة التى عبرت عنها المصادر الدينية الأساسية وفى مقدمتها القرآن الكريم:

- فالله اختار الإنسان "خليفة" له على الأرض.
- والله أمر الملائكة أن تسجد لآدم.
- والله نفخ من روحه فى الإنسان.
- والله خلق الإنسان فى أحسن تقويم، وصورنا فأحسن صورنا.
- والله سخر ما فى هذا الكون لخدمة الإنسان وتيسير سبل الحياة له.
- والله "غنى عن العالمين"، ومن ثم فالجهد البشرى المطلوب إنما هو لأجل الإنسان نفسه.

الاتصال "يؤنس" الإنسان:

وإذا كان الإنسان هو المبتدأ وهو المنتهى فى مسيرة الحياة البشرية، فإن الوليد البشرى إنما يكون فى البداية "إنسانا بالقوة" حسب التعبير الأرسطى الشهير بحيث لا يستطيع أن يتحول إلى "إنسان بالفعل" إلا بالقدر الذى تستثمر فيه "الإمكانات الاتصالية" التى لديه، هذا الاستثمار الذى لا يتأتى بدرجة عالية إلا عن طريق عمليتى "التربية" و"الإعلام"، ولعل هذا ما توضحه الفقرات التالية:

فعندما يستقبل الطفل الحياة فى لحظته الأولى، يكون على درجة كبيرة من العجز عن التكيف بنفسه مع البيئة المحيطة به عجزا لا نظير له حتى لدى تلك المستويات الحيوانية العالية، ومن مظاهر تفوق عجز الإنسان فى حال ولادته: أن الوليد الشامبنـــزى يستطيع التعلق ببطن أمه منذ اليوم الأول وبدون أن تساعده أمه على ذلك، بل يعتمد على قدرته على القبض بيديه وقدميه، على الشعر المنتشر على الأم، فى حين أن الطفل البشرى لا تظهر لديه بوادر القدرة على "القبض باليد" على الأشياء إلا فى أواخر الشهر الثانى، وتظل بعد ذلك فترة طويلة بمثابة فعل منعكس ردا على لمس

راحة اليد، بل إن هذا العجز ليمتد إلى عملية الامتصاص التى يشاع عنها أن نشاطها منظم فطريا[٤].

لكن هذا العجز الشديد يتحول إلى (مزايا تربوية هامة)، ويتضح لنا ذلك من إبراز الإمكانات الاتصالية التالية[٥]:

أ- إن الوليد يظل فترة طويلة بحاجة شديدة للاتصال بالراشدين لاستمرار عنايتهم به كشرط لاستمرار بقائه على قيد الحياة.

ب- أنه يلقى فرصة للتعلم - نتيجة لاستمرار اتصاله بالراشدين لا تتاح لغيره من الكائنات فى أى مستوى تطورى آخر.

ج- أنه بحكم طبيعته العضوية التى لها هذه الدرجة من عدم التحدد الفطرى - أكثر استعدادا لتشكيل نشاطه فى قوالب متنوعة عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية.

د- أنه مضطر أن ينمى وسائل التعبير والطلب بدرجة تتناسب مع شدة احتياجه إلى مساعدة الآخرين وتنوع حاجاته.

وإذا كان علماء النفس قد أولوا هذه القضية عناية ملحوظة تكشفت من خلال دراسات امبريقية متعددة فإن بعض فلاسفة التربية قد تنبهوا إليها، من هؤلاء: جون ديوى الذى عرف التربية بأنها "نمو" يتم بالاتصال. ولما أراد أن يحدد شروط النمو، وضع فى الصدارة ما يكون عليه الإنسان حال ولادته من (فجاجة) أو عدم نضج تجعله قليل الحول والحيلة. بيد أن تطرف قلة الحول والحيلة هذه يوحى مع هذا بقوة تعويضية "فالقدرة النسبية لدى صغار العجماوات على تكييف أنفسهم بصورة طيبة بالشروط المادية فى فترة مبكرة من أعمارها توحى بأن واجباتها ليست مرتبطة ارتباطا وثيقا حميما بحياة من حولها، فيمكن القول إذن إن هذه الصغار مضطرة أن تكون لها مواهب مادية لأنها مفتقرة إلى مواهب احتمالية.

(٤) مصطفى سويف: الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١، ص٧٣.
(٥) المرجع السابق، ص٧٤.

أما أطفال البشر، ففى وسعهم أن يمضوا، برغم عجزهم المادى أو (البدنى) وذلك بسبب ما زودوا به من إمكانات اجتماعية"[٦].

وقابلية تكيف الكائن الفج بالنمو عن طريق الاتصال هى قوام مرونته، وهذا شىء مختلف عن مرونة الشمع أو المعجون، فهى ليست استطاعة التشكل أو تغير اتخاذ لون البيئة المحيطة بهم مباشرة مع احتفاظهم باتجاههم الخاص، ولكن ما يعنيه "ديوى" أعمق من هذا. إنها أساسا القدرة على التصدى لصعوبات موقف لاحق، وذلك معناه القدرة على تنمية استعدادات على أساس نتائج الخبرات السابقة التى تتجمع بذكاء عن طريق "الاتصال" وبدون ذلك يستحيل اكتساب العادات[٧].

إن الكتكوت مثلا يلتقط بمنقاره الطعام بدقة بعد ساعات قليلة من الفقس، ومعنى ذلك: أن توافقات محددة من أنشطة العينين فى الرؤية، وأنشطة الجسم والرأس فى النقر الدقيق، قد استكملت فى بضع محاولات. أما الطفل، فيحتاج إلى نحو ستة أشهر كى يقوى على القيام بدقة تقريبية يمد يده إلى شىء منظور، ويستطيع تنفيذ هذه الحركة، والنتيجة: أن الكتكوت محدود بالكمال النسبى لموهبته الأصلية، أما الطفل فيمتاز عليه بتلك الكثرة من ردود الأفعال الفطرية التى يستخدمها فى محاولاته، وبالخبرات التى تصحبها، وحتى لو أضير بتعارض بعضها مع بعض، فهو إذ يتعلم فعلا ما، بدلا من أن يجده جاهزا، مضطرا أن يتعلم كيف ينوع عوامله، والقيام بتأليفات متباينة، طبقا لتغير الظروف، يفتح أمامه باب إمكان التقدم المستمر. إنه إذ يتعلم فعلا ما، تنمو أو تتطور طرق الفعل بحيث تصلح للاستعمال فى مواقف أخرى، وأهم من هذا أيضا أن الكائن البشرى يكتسب عادة التعلم، أى يتعلم كيف يتعلم[٨].

ويذهب (كوفكا K.Koffka) إلى أن أكثر ما نتعلمه، إنما نتعلمه، خلال الاتصال، بواسطة المحاكاة القائمة على تفهم "النماذج"، وهذا صحيح بالنسبة للطفل والراشد

(٦) جون ديوى: الديمقراطية والتربية، ترجمة نظمى لوقا، القاهرة، الأنجلو المصرية، ١٩٧٨، ص٤٣.

(٧) المرجع السابق ص٤٥.

(٨) سعيد اسماعيل على وآخرون: التعليم والثقافة كحاجات أساسية فى الوطن العربى، منشورات المعهد العربى للتخطيط بالكويت، دمشق، ١٩٩١.

ولا سيما فيما يتعلق بتعلم المهارات الحركية والتعبيرية[٩]. وتبدو بوادر المحاكاة منذ الشهور الأولى فى حياة الطفل حيث يبتسم ردا على ابتسامة أمه، ويبكى إذا ما سمع صوت طفل آخر يبكى، إلا أن هذه المحاكاة لا تقوم على تفهم للنماذج، ولكنها على أية حال دليل على مدى العمق الذى تصل إليه جذور هذه الوظيفة فى نفوسنا، إذ من الواضح أنها تستند إلى مستويات فى الجهاز العصبى تحت لحائه، وهذا ما يهيئ الطفل للارتباط الوجدانى العميق بأفراد جماعته، كما يهيؤه لامتصاص أنماط تعبيرهم بحيث يقدم نفسه إلى الآخرين من خلالها فيسهل الاستجابة له استجابة ملائمة.

ويجرى على هذه الوظيفة ما يجرى على سائر الوظائف النفسية من آثار الارتقاء إذ تصبح شيئا فشيئا وظيفة إرادية يمارسها الفرد وهو شاعر بذاته وموجه لطاقاته نحو انتقاء بعض النماذج دون الأخرى، وهذا يمكنه من زيادة إتقانها بحيث يتمكن شيئا فشيئا من محاكاة جزئيات النماذج التى يدركها، لا خطوطها العامة فحسب، ويعنى ذلك، أنها لا تلبث أن تصبح - مع إطراد الارتقاء - إحدى وظائف الأنا الخاضعة لتوجيهه، بعد أن كانت تجرى على الطفل بطريقة آلية تحددها المؤثرات الخارجية إلى حد كبير[١٠].

وهكذا نجد أن الحقائق الأساسية التى لا محيص عنها لميلاد وموت كل واحد من الأفراد المكونين لأى جماعة اجتماعية، تفرض ضرورة الاتصال، فمن جهة، هناك الهوة الواسعة بين فجاجة الأعضاء حديثى الولادة فى الجماعة - وهم ممثلوها الوحيدون مستقبلا - وبين نضج الأعضاء الراشدين الذين يملكون معارف الجماعة وعاداتها. ومن جهة أخرى هناك الضرورة التى لا تحكم أن يكون هؤلاء الأعضاء غير الناضجين مصونين يوميا بأعداد كافية فحسب، بل وأن يتم أيضا تعريفهم باهتمامات وأغراض ومعلومات ومهارات وممارسات الأعضاء الناضجين واشتراكهم فيها، وإلا فقدت الجماعة خصائص حياتها المميزة لها، وحتى فى القبيلة البدائية، نجد إنجازات الراشدين

(٩) الأسس النفسية، ص١٤٣.
(١٠) المرجع السابق، ص١٤٤.

تتجاوز كثيرا زرع الأعضاء غير البالغين لو أنهم تركوا لأنفسهم. ومع نمو المدنية تتزايد الفجوة الفاصلة بين القدرات الأصلية لغير الناضجين وبين مستويات وعادات من هم أكبر منهم، فمجرد النمو البدنى، ومجرد حذق الضرورات اللازمة للوجود على قيد الحياة لن يكفينا لإعادة إنتاج الحياة الخاصة بالجماعة. وفيما يتعلق بالكائنات التى تولد غير مدركة، بل وغير مبالية بأهداف وعادات الجماعة لابد من تعريفهم بها وجعلهم مهتمين إيجابيا ونشاطيا بها، والاتصال - دون سواه، هو القادر على سد هذه الفجوة[١١].

إن المجتمع يوجد عن طريق عملية انتقال أو (تحويل)، وهو فى هذه على قدم المساواة مع الحياة البيولوجية، ويتم الانتقال أو التحويل عن طريق انتقال عادات العمل والتفكير والشعور من الأكبر سنا إلى الأصغر، ودون هذا الانتقال، أوالتوصيل للمثل العليا - والآمال، والتوقعات، والمستويات، والآراء من أعضاء المجتمع الذين يوشكون أن يختفوا من حياة الجماعة إلى من يدخلونها، لن يتسنى للحياة الاجتماعية أن تستمر فى البقاء[١٢]. إن المجتمع لا يكتب له الاستمرار عن طريق الانتقال أو التحويل أو الاتصال فحسب، بل يجوز القول: إنه يوجد فى الانتقال أو التحويل وفى الاتصال "فالصلة أكثر من لفظية بين كلمة (مشترك Common) و(مجتمع محلى Community) و(اتصال Communication) - وهى فى الإنجليزية من مادة واحدة لغويا، فالناس يعيشون فى مجتمع محلى، بفضل ما بينهم من أشياء مشتركة، والاتصال هو الطريقة التى بها يتملكون الأشياء المشتركة، ومما لابد أن يكون مشتركا بينهم لتكوين مجتمع محلى، أو أى مجتمع على العموم، هو الأهداف والمعتقدات والمطامح والمعرفة، مما لا سبيل إليه إلا عن طريق الاتصال[١٣].

وإذا كانت هذه أهمية الاتصال، بالنسبة للإنسان، فما هو الاتصال؟

---

(١١) الديمقراطية والتربية، ص٦.

(١٢) المرجع السابق، ص ٧.

(١٣) المرجع السابق، ص ٨.

مفهوم الاتصال:

إذا كان قد تبين لنا من الجزء السابق أن الاتصال ملازم لنشأة الحياة البشرية وتكون المجتمعات الإنسانية، إلا أنه مازال يشير إلى معان عدة بين كثير من الناس مما أدى إلى ندرة الاتفاق على معنى محدد له، وهذا ما دعا بعض الباحثين إلى أن يصفه بالوضوح من جانب والغموض من جانب آخر. أما كونه واضحا، فهذا هو الانطباع السريع لو وضعنا القارئ أمام التعريف التقليدى الشائع، حتى إذا حاولنا أن نحدد نطاقه الواسع وأن نعين مجالات استخدامه، وجدنا الوضوح قد تبدد، والغموض قد أخذ يلتف حوله(١٤).

فلقد استخدمت كلمة "اتصال" فى مضمونات مختلفة، وتعددت مدلولاته، فكلمة اتصال فى أقدم معانيها تعنى نقل الأفكار والمعلومات والاتجاهات من فرد إلى فرد آخر، ولكن بعد ذلك أصبحت كلمة اتصال تعنى أيضا أى خطوط للمواصلات أو قنوات تقوم بربط مكان بآخر أو تقوم بنقل سلع وأفراد. وقد حدث تقدم هائل فى هذا النوع من الاتصال أو المواصلات منذ قيام الثورة الصناعية. وقد استخدم المهندسون كلمة اتصال باستمرار للإشارة إلى التليفون والتلغراف والراديو، كما استخدمها الأطباء فى الحديث عن الأمراض المعدية. وقد أدرك علماء الاجتماع أنهم يستطيعون أن يستخدموا الكلمة لتصف عملية التفاعل الإنسانى، فعرف بعضهم الاتصال بأنه العمليات التى يؤثر عن طريقها الأفراد فيمن حولهم، ونظر بعض العلماء - خاصة علماء السياسة - إلى المجتمعات على أنها نظم اتصال(١٥).

ولفظ اتصال Communication انبثق من العبارة أو اللفظ اللاتينى Communis الذى يعنى "عام أو مشترك" أو من اللفظ Communicare والذى يعنى "تأسيس جماعة أو المشاركة". ومن الواضح - على الأقل - أن اللفظ يدل على المشاركة أو تلاقى العقول، وعلى إيجاد مجموعة من الرموز المشتركة فى أذهان المشاركين، وباختصار،

---

(١٤) Serena & Mortensen (eds): Foundations of Communication Theory, New York, Harper and Row, 1970, pp. 15-16

(١٥) جيهان أحمد رشتى: الأسس العلمية لنظريات الإعلام، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٧٨، ص٥٥.

يدل اللفظ على التفاهم. وعليه فإن الاتصال (كعملية Process) هو اتصال ذو اتجاهين إذ أن الرسائل تنساب فى الاتجاهين معا، وتتمخض عنها إجراءات مشتركة ذات استجابات مشتركة[١٦].

والاتصال فى الأساس هو عملية اجتماعية، فنحن لا نحقق الاتصال فقط باللغة المنطوقة أو المكتوبة، وإنما أيضا من خلال مجموعة الأفعال المتعددة (الاتصال الحركى) كأن يتم التفاهم بابتسامات، أو التجهم والعبوس، أو عن طريق الإشارات، أو بحركة الرأس، أو المصافحة باليد أو هز المنكبين، أو المعانقة، أو بواسطة الدفع واللكم.. إلخ. والأفعال بلا شك تتحدث أو تتخاطب بصوت مرتفع، تماما مثل الكلمات فى حالات الاتصال الشخصى، وفى الاتصال بين الأمم. وبالإضافة إلى الإيماءة واللمس والعقل (اللغة)، فإننا نحقق الاتصال أيضا بأساليب أخرى بارعة لا تحصى مثل موضات الأزياء والأشكال الاجتماعية المتعددة، ودائما ما يحدث شكل من أشكال سوء الفهم من خلال لغتنا الصامتة تماما كما فى لغة الكلام[١٧].

وإذا كان (الاتصال) هو ببساطة عملية الاتصال، فإن (الاتصالات) هى الوسائل التكنولوجية المستخدمة لتنفيذ هذه العملية.

ويرى إدوارد سابير أن هناك فرقا مهما بين الاتصال والاتصالات. فالفرد - فى رأيه - يعنى ما يسميه بالعمليات الأولية أى السلوك الشعورى واللاشعورى الذى يقوم الاتصال. وعنده أن العمليات الأربع هى: اللغة - الإيماء بأوسع المعانى - الكلمة وتقليد السلوك الظاهرى للآخرين، بالإضافة إلى مجموعة كبيرة يمكن أن تسمى بشكل غامض بالإيماء الاجتماعى، وهو يستخدم الجمع (الاتصالات) للدلالة على ما يطلق عليه الوسائل الثانوية، وهى: (الأدوات، والنظم التى تساعد على القيام بالاتصال. وهو يقدم قائمة بها مثل: شفرة مورس، والتخاطب بالإشارة، والنداء بالنفير، والتلفزيون، والراديو. وقد كان يستطيع - بطبيعة الحال - أن يضيف آلافا غيرها، مثل: (القلم

(١٦) جون ميرل ورالف لوينشتاين: الإعلام، وسيلة ورسالة، ترجمة مساعد خضر العرابى الحارثى، الرياض، دار المريخ، ١٩٨٩، ص٢٥.

(١٧) المرجع السابق. ص٢٦.

المعدنى، والفرشاة، أو قلم البسط، وجلد الرق، والورق) وآلة الطباعة، والفيلم، وأجهزة الإرسال التلفزيونى[١٨].

ويرى سابير أن التفرقة بين اللفظين لها أهميتها التاريخية والاجتماعية ذلك أن البشرية كلها قد مُنحت العمليات الأولية: كاللغة، والإيماء، وتقليد السلوك، والإيماء الاجتماعى، غير أن الحضارات المتقدمة نسبيا فقط هى التى طورت الفنون الثانوية المتطورة.

وتشترك كل الفنون الثانوية فى خاصيتين: الأولى - أنه بالرغم من اختلافها ماديا، فإن مهمتها الرئيسية هى إيجاد الاتصال اللغوى فى المواقف التى يستحيل فيها الاتصال وجها لوجه. ويشيع بعض هذه الفنون فى الاتصال بالإيماء أو الحركة أيضا، مثل فنون التصوير والنحت والتصوير الفوتوغرافى، والسينما، والتليفزيون.

والخاصية الثانية، هى أن تلك الفنون الثانوية تقدم الوسائل غير المباشرة التى يمكن بها تنفيذ العمليات الأولية للتقليد والإيماء الاجتماعى، فهى وسائل غير مباشرة، إذ أن التلغراف والراديو مثلا، لا يقومان بالاتصال بنفسهما وإنما يستطيعان القيام بذلك فقط عندما يستخدمهما شخص من الأشخاص لارسال رموزه[١٩].

وقد استطاع الإنسان - عن طريق اختراع هذه الوسائل الفنية، وتحسينها، وزيادة عددها، أن يحرر عملية الاتصال من قيود الزمان والمكان.

وتتكون عملية الاتصال من العناصر الأربعة التالية [٢٠]:

١- المرسل: هو الهيئة أو الفرد الذى يود التأثير فى الآخرين ليشاركوه فى أفكار ومشاعر واتجاهات معينة كالمفكرين والفلاسفة والمدرسين والمرشدين الاجتماعيين

---

(١٨) وليام ل ريفرز وآخرون: وسائل الإعلام والمجتمع الحديث، ترجمة إبراهيم إمام، القاهرة، دار الفكر العربى، د.ت، ص٣٨.

(١٩) المرجع السابق. ص ٣٩.

(٢٠) فتح الباب عبد الحليم وإبراهيم حفظ الله: وسائل التعليم والإعلام، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٨٥، ص ٨٣.

والمذيعين ورجال الإعلام.. إلخ، وقد تكون هذه الأفكار أو المشاعر من ابتكار المرسل نفسه كما يفعل المفكرون والفلاسفة عندما ينشرون بأنفسهم أفكارهم على الناس بالخطابة أو بالكتابة أو من ابتكار غيره، كالمدرس الذى يدرس لتلاميذه الحقائق العلمية التى توصل إليها مختلف العلماء، أو ناقلا لها عن الغير مثل مذيع نشرة الأخبار فى هيئة الإذاعة.

٢- **المستقبِل**: هو الفرد أو الجماهير التى يوجه إليها المرسل رسالته، فالصديق الذى يستمع إلى صديقه، والتلاميذ فى حجرة الدراسة، والفلاحون المجتمعون مع المرشد الزراعى، والجماهير التى تستمع إلى الراديو أو التليفزيون أو تقرأ الصحف، جميعهم مستقبلون.

٣- **الرسالة**: وهى الأفكار والمفاهيم والمشاعر والاتجاهات التى يرغب المرسل فى اشتراك الآخرين فيها. فالحقائق العلمية التى يقدمها المدرس لتلاميذه رسالة، والاتجاهات الفكرية التى يرغب المصلح فى تعليم الناس إياها رسالة، والشعور بالفرح أو بالحزن الذى يحاول الفنان أن يشرك الجمهور فيه رسالة، والفكرة الجديدة التى يود المفكر أن يفهمها للناس رسالة.. وهكذا.

٤- **وسيلة التفاهم**: وهى المنهج الذى تنقل به الرسالة من المرسل إلى المستقبل، فاللغة اللفظية، والإشارات، والحركات، والصور، والتماثيل، والسينما، كلها رسائل لنقل الرسالة.

وإذا كانت المعانى والشروح السابقة هى - غالبا - نتاج "عقل إعلامى" فما هو يا ترى الرأى (التربوى) فى مفهوم الاتصال؟

يؤكد جون ديوى أن الاتصال "عملية مشاركة فى الخبرة" بين شخصين أو أكثر حتى تعم هذه الخبرة وتصبح مشاعا بينهم، يترتب عليه حتما إعادة تشكيل وتعديل المفاهيم والتصورات السابقة لكل طرف من الأطراف المشتركة فى هذه العملية.

ويؤكد ديوى على مفهومين فى تعريفه لعملية الاتصال وهما:

أ- الخبرة.

ب- المشاركة فى الحصول على الخبرة[٢١].

فعملية التدريس ليست مجرد التقاء مدرس بطلبته وتقديمه لبعض المعلومات، ولكنها لقاء خبرتين حول موضوع الدرس، خبرة المدرس حول هذا الموضوع، التى اكتسبها بعد أن مر بمواقف متعددة، فاكتسب خبرة مرئية عن طريق الوسائل المرئية كالأفلام والصور والرحلات وغيرها، وخبرة مسموعة عن طريق الوسائل المسموعة بأنواعها، وخبرة حسية ملموسة عن طريق اللمس والتشكيل والفحص، وخبرة مجردة عن طريق التعامل مع الرموز المرئية كالكلمة المكتوبة، والمعادلات أو الرموز الواقعية لكثير من الموضوعات. وهكذا حتى تكونت للمدرس خبرة غنية متكاملة حول الموضوع الذى يقوم بتدريسه، وعلى قدر ما يمر به من مواقف وممارسات تكـــون خبرته فى ذلك[٢٢].

أما إذا نظرنا إلى خبرة التلميذ فى هذا الموضوع، فإننا نجد أنها إما معدومة وإما جزئية، ولكنها فى أغلب الأحيان لا تساوى خبرة المدرس، فإذا فهمنا الاتصال على أنه لقاء بين خبرتين، كان من الضرورى على المدرس أن يهيىء للتلميذ فرص التعلم المتنوعة التى ذكرناها، والتى ساهمت فى تكوين خبرات المدرس حتى يمكن للتلميذ اكتساب الخبرة التى تشبه خبرته، أو تقترب منها فيتم الاتصال والتفاهم بينهما. أما إذا اكتفى المدرس بالإلقاء والشرح النظرى، اكتسب التلميذ خبرة نظرية مجردة تنقصها أبعاد كثيرة، فلا يتحقق الاتصال بين هاتين الخبرتين ولا يتم التعلم.

والمفهوم الثانى الذى يؤكده ديوى فى وصفه لعملية الاتصال هو المشاركة، وتنطوى على أمرين أساسيين هما الحرية والإيجابية. ولن تتأتى حرية تكوين الخبرة للتلميذ إلا إذا عمل المدرس على تنويع مجالات اكتساب هذه الخبرة حتى يأخذ كل

(٢١) حسين حمدى الطوبجى: التكنولوجيا والتربية، الكويت، دار القلم، ١٩٨٨، ص ٣١.
(٢٢) المرجع السابق. من ص ٣١-٣٢.

طالب من الخبرات المتاحة له، ما يتفق مع ميوله واستعداداته كى نحقق مبدأ تكافؤ الفرص فى الاختيار والتعلم[٢٣].

أما الأمر الثانى الذى يستخلص من تعريف ديوى للاتصال، فهو تأكيد مبدأ الإيجابية فى الحصول على الخبرة، فالتعليم السليم يتم عن طريق الممارسة الإيجابية فيسعى إلى اكتساب الخبرة ولا يأخذ منها موقفا سلبيا، كأن يستمع إلى المحاضرة فقط أو ينصت إلى الشرح. ويعنى ذلك أيضا وضوح الهدف الذى يسعى التلميذ إلى للوصول إليه أو المشكلة التى يريد أن يتوصل إلى حل لها، ووجود الحاجة والدافع إلى التعلم، وعليه فإن فهم المدرس لعملية الاتصال على هذا النحو، يجعله يدرك أن التدريس لن يحقق الغاية من الاتصال إلا إذا عمل المدرس على توفير هذه المجالات، ومراعاة هذه الظروف التى تؤدى إلى التعلم واكتساب الخبرة، فلا تستعمل وسائل الاتصال كأدوات للتدريس بقدر ما تستخدم كوسائل للتعليم.

وليس الطريق سهلا دائما أمام عملية الاتصال، ذلك أن هناك مشكلات يمكن أن تحول بين القائم بالاتصال وبين توصيل رسالته، من هذه المشكلات:[٢٤]

١- التشويش، وهو مصطلح يستخدم لوصف أى شىء يتدخل فى أمانة النقل للرسالة (مثل الشوشرة على الإرسال الإذاعى). وهناك نوع ثان من التدخل يسمى تشويش المعانى، وهو يحدث إذا ما أسىء فهم رسالة ما حتى إذا كانت متلقاة كما أرسلت تماما، فالقائم بالاتصال، على سبيل المثال، قد يستخدم كلمات يصعب على فرد من الجمهور أن يفهمها، أو قد يذكر أسماء لا علم له بها. أى أن مادة الرسالة تكون خارج إطار الدلالة بين المرسل والمستقبل أو قد يستخدم كلمات يكون لها معنى عند القائم بالاتصال ومعنى آخر عند المستمع أو القارئ[٢٥].

---

(٢٣) المرجع السابق. ص ٣٣.

(٢٤) شاهيناز طلعت: وسائل الإعلام والتنمية الاجتماعية، القاهرة، الأنجلو المصرية، ١٩٨٠، ص٤٢.

(٢٥) المرجع السابق. ص ٤٣.

٢- النزعة الانتقائية، تلك النزعة التى يعبر عنها القول العربى الشهير:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساوئا

فبفعل الميول الشخصية، والاتجاه الفكرى، والعقيدة الدينية، والتنشئة، نجد المستقبل للرسالة الإعلامية - فى كثير من الأحيان - لا يفتح عقله لكل ما يتعرض له، وإنما قد يتيح لنفسه فرص سماع أو مشاهدة ما يمكن أن يوافق عليه، معرضا عن غير ذلك!

٣- المنظور الطبقى، فالوعاء الطبقى الذى يعيش فيه الإنسان له دوره البارز فى عملية الانتقاء، وفى عملية التأثر وفى عملية التفسير ومن المحتمل أن تكون الاستنتاجات من الرسالة خاطئة إذا كان المستقبل والمصدر مختلفين، أما إذا كان الإثنان متماثلين، فإن المصدر طالما يعرف نفسه فهو يعرف المستقبل[٢٦].

والتماثل والتجانس، هو الدرجة التى يكون فيها المصدر والمستقبل متماثلين فى صفات مثل المعتقدات والتعليم والوضع الاجتماعى.. إلخ، والاتصال يتم فى أغلب الأحوال بين الأفراد المتجانسين.

أما التغاير، فهو الدرجة التى يكون فيها المصدر والمستقبل مختلفين فى صفات معينة. والاتصال بين المصدر والمستقبل المتغايرين أقل فاعلية من الاتصال بين المصدر والمستقبل المتجانسين. والاتصال المتغاير، من ناحية أخرى، غالبا ما يؤدى إلى تحريف فى الرسالة وإلى تأجيل إرسالها، وإلى وضع قيود على وسائل الاتصال، وإلى الخلاف الإدراكى. ويمكن تصنيف الاتصال بطرق عدة، ولكننا نختار من بينها هذا النموذج الذى يصنف الاتصال الشخصى إلى أربعة نماذج[٢٧].

وأول هذه النماذج هو أكثرها قربا للصلات الشخصية، وأكثرها انتشارا وأبسطها بنية، والعلاقة بين اثنين من المشاركين (أو بين قليل من المشاركين) يكونان مباشرة فى وضع اتصال متقارب، تعد واحدة من العلاقات التى لها درجة ساخنة من الحوار والتعاطف، إذ يظهر الصدى المباشر أو التفاعل كجزء طبيعى وتلقائى من الوضع

---

(٢٦) المرجع السابق. ص ٤٩.

(٢٧) الإعلام، وسيلة ورسالة، ص ٣٠.

الاتصالى. ومن الناحية النظرية، إذا كانت كل العوامل الأخرى متساوية، فإن هذا الوضع الاتصالى من شخص إلى آخر يحظى بفرص أكبر من النجاح من بين النماذج الأخرى.

ومن الأمثلة لهذا النموذج الاتصال بين كل من الآباء والأمهات وبين أبنائهم، والعلاقة بين الأخصائى النفسى أو الأخصائى الاجتماعى، وهذا الطالب أو ذاك، والعلاقة بين الأستاذ وبين الطالب الذى يشرف عليه فترة إعداده لأطروحة الماجستير أو الدكتوراه.

أما النموذج الثانى من الاتصال (المجموعة الصغيرة جدا)، فيمكن أن يتمثل فى فصول الدراسة بالمدارس وقاعات المناقشة فى الجامعات، وكذلك المؤتمرات والندوات واجتماعات مجالس الأقسام والكليات والجامعات، حيث تتوافر فرص واسعة للمشاركين ليتخاطبوا ويتفاعلوا، ومن ثم فإن المسألة قد تبدو أكثر رسمية وأفضل تنظيما وتكوينا عما عليه فى حالة الحوار بين شخص وآخر[٢٨].

والنموذج الثالث من الاتصال، هو الاتصال الجمعى أو الجماعى، والمشاركون فى هذا النوع من الاتصال يتفاعلون مع بعضهم البعض، ومع الآخرين من خلال شحنات كبيرة من العواطف والمشاعر المشتركة، ويكفى أن يقوم فرد واحد أو مجموعة قليلة من الأفراد بالخطوات الأولية لإرسال الرسالة، وذلك كما نرى بالنسبة للدعاة الدينيين فى الحالة الأولى، وكما نرى عندما يعزف فريق موسيقى أمام آلاف من المستمعين المشاهدين.

أما النموذج الرابع فيتمثل فى الاتصال الجماهيرى حيث يشار إلى وسائل الإعلام أو القنوات أحيانا على أنها "القنوات المصطنعة" طالما أنها أنشئت للأشخاص وتمثيلهم، وهى فى الواقع قنوات راسخة وتشمل عموما الصحف والمجلات والراديو والكتب والسينما والتلفزيون. وهذه الوسائل الجماهيرية تتمتع بميزة مهمة تتفوق على النموذج السابق (الثالث) لأنها تستبعد ظاهرة الزحام المرضية ولا تتعامل معها، فلا وجود

(٢٨) المرجع السابق. ص ٣١.

للهستيريا الجماعية أو حالات انعدام ضبط النفس والتوازن. وأفراد هذه الوسائل يتفاعلون - عادة - بشكل فردى مع الرسائل المرسلة عبر وسائل الإعلام[٢٩].

أشكال الاتصال:

تشترك أشكال الاتصال وأساليبه فى محور بعينه وهو محاولة السيطرة والتحكم فى عقل الإنسان وسلوكه. وقد اختلفت الأسماء التى يعبر بها عن أساليب الاتصال وفنونه تبعا للغرض الذى يراد تحقيقه من عملية الاتصال، أو تبعا لدرجة الترغيب أو الترهيب، أو تبعا لكونها عملية اتصال قصيرة المدى (كالتسلية) أو طويلة المدى (كالتعليم والثقافة)، أو تبعا لكونها اتصالا تحضيريا أو اتصالا تطويعيا، أو غير ذلك من العوامل. واستخدمت الكلمة المطبوعة "فى الصحيفة والكتاب"، والكلمة المسموعة "فى الإذاعة"، والصورة والصوت "فى التليفزيون والسينما" وغيرها من أساليب الاتصال لتحقيق الأهداف المطلوبة أو المتوقعة[٣٠].

ولكن ما أسماء هذه الأساليب والفنون التى تعمل على تشكيل آراء الناس واتجاهاتهم ومعتقداتهم؟ ما الفروق التى تميز بعضها عن البعض الآخر؟ وهل يعتمد هذا التشكيل والتحول على الضغط العاطفى أو الانفعالى أو البدنى أكثر مما يعتمد على التفكير المنطقى؟ وما السبيل فى هذا العصر التكنولوجى لأن يكون الفرد فى مأمن من العزل والشعور بالضياع وسط جمهور سلبى؟ وما السبيل كذلك لأن يكون الجمهور نفسه فى مأمن من الاغتصاب العقلى والانسياق الانفعالى والعاطفى؟

إن الإجابة عن هذه التساؤلات لا تعتمد على دراسة أساليب الاتصال وحدها بل تعتمد على دراسة النظام السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى السائد فى الدولة والذى يعتبر الاتصال جزءا منه.

---

(٢٩) المرجع السابق. ص ٣٢.

(٣٠) أحمد بدر: الاتصال بالجماهير: الكويت، وكالة المطبوعات، ١٩٨٢، ص ٦٢.(٣١) المرجع السابق. ص٦٣.

ويمكن الإشارة إلى أهم أشكال الاتصال فيما يلى:

١- **الإعلام:** ولأن الإعلام موضوع رئيسى لدراستنا فسوف نكتفى هنا بسطور قليلة، على أن نفصل جوانب أخرى متعددة فى مكان تال فيما بعد.

فالإعلام هو تزويد الناس بالمعلومات الصحيحة والحقائق والأخبار الصادقة بقصد معاونتهم على تكوين الرأى السليم إزاء مشكلة من المشكلات أو مسألة عامة. أى أن الإعلام يقوم على مخاطبة العقل لا الغريزة والعاطفة. ودور الإعلام هو نقل صورة الشىء لا إنشاء هذه الصورة، وبالتالى فالإعلام لا يرسم سياسة الدول بل هو معبر عنها فقط(٣١).

٢- **الإعلان:** فالإعلان ما هو فى جوهره إلا رسالة ولو أنه رسالة مدفوعة. وإذا كان رسالة، فهو إما أن يكون أخبارا أو معلومات أو ترفيها، أو الثلاثة مجتمعة، ومن ثم فإن رغبة المشاهد أو القارئ فى الرسالة الإعلانية ترتبط بحاجته للمنتج والمعلومات أو فى القيمة الترفيهية للإعلان نفسه أو التقديم المتزن(٣٢).

وللقراء بلا شك رغبة عارمة فى إعلانات عن أسعار السلع كما تباع بالتجزئة فى الصحف، وتلك الخاصة بالإصدارات المتخصصة، فمثلا تبدو الإعلانات المتعلقة بالسلع الاستهلاكية والتى تنتشر فى الصحيفة اليومية أكثر اجتذابا لربة المنزل من أى شىء آخر لأنها تزودها بأخبار السلع والأصناف الخاصة، أما قارئ المجلة المصورة، فقد نجد أن الإعلانات تهمه تماما مثل المقالات لأنها تتعلق مباشرة باهتماماته الخاصة، ويبقى عدد قليل من إعلانات الوسيلة المطبوعة طفيليا طالما أن القارئ يتحكم بصورة كبيرة فى عملية الاختيار. ويتذوق جمهور الوسيلة أحيانا المواد الإعلانية التى تظهر فى الشبكة التلفزيونية لأن قيمتها الترفيهية عالية فى الغالب، ومن هذا المنطلق فإنها تروق المشاهد بالتأكيد، ولكن حاجة المشاهد لنوع وماركة السلعة المعلن عنها قد تكون قليلة(٣٣).

---

(٣١) المرجع السابق. ص٦٣.

(٣٢) الإعلام، وسيلة ورسالة، ص ١٢٢.

(٣٣) المرجع السابق، ص ١٢٣.

ولا تقف أهمية الإعلان وخطورته على ما يروجه من قيم واتجاهات تعزز الاتجاه إلى مزيد من الاستهلاك فقط ولكن تزايدت فى العصر الحالى خطورته لما أصبح معروفا من قدرته على التحكم فى محتوى الوسيلة الإعلامية التى يرتبط بها، وهذه القدرة على التحكم غالبا ما لا تكون مباشرة ومقصودة، وإنما تظهر من خلال الكم المالى الذى يدفعه المعلن للإعلان عن سلعته خاصة إذا كان هذا الكم ضخما ومترددا بكثرة، وخلال فترة طويلة.

٣- **الدعاية**: والدعاية قديمة قدم المجتمع الإنسانى، كما أنها ليست اختراعا شرقيا أو غربيا، وتستخدم الدعاية كمحاولة للسيطرة على الفكر والسلوك، يستوى فى ذلك الدعاية داخل حدود الوطن أو الموجهة إلى الشعوب الأخرى. وربما تعود معظم استخدامات مصطلح الدعاية بصورته الحديثة إلى الكلمة اللاتينية de propa-ganda fide، وكان لهذا المصطلح علاقة بالجهود التى تبذلها الكنيسة الكاثوليكية الرومانية لنشر الدعوة المسيحية عن طريق المبشرين، وعلى ذلك يعود المصطلح إلى أول القرن السابع عشر(٣٤).

ويعرف أحد الباحثين الدعاية بأنها المحاولة المقصودة التى يقوم بها فرد أو جماعة من أجل تشكيل اتجاهات جماعات أخرى أو التحكم فيها أو تغييرها، وذلك عن طريق استخدام وسائل الاتصال. والهدف من ذلك هو أن يكون رد فعل أولئك الذين تعرضوا لتأثير الدعاية - فى أى موقف من المواقف - هو نفسه رد الفعل الذى يرغبه الداعية(٣٥).

ورجل الدعاية لا يريد من جمهوره أن يقوم بالتحليل أو التفكير الجاد فى رسائله، ولا أن يقدم دليلا ثابتا. ولرجل الدعاية توجه غير تعليمى، ومعنى هذا أن الأهداف النهائية قد قررت سلفا قبل أن يبدأ البحث عن الحقيقة(٣٦).

---

(٣٤) الاتصال بالجماهير، ص ١٩١.

(٣٥) Qualter, Terence H: Propagand and Psychological Warface, New York, Random House Inc, 1962d, p.27

(٣٦) الإعلام، وسيلة ورسالة، ص ٢٧١.

٤- **العلاقات العامة**: تميل معظم تعريفات العلاقات العامة إلى اعتبار هذه العملية "هندسة وتدبير التفاهم والرضى"، أو اعتبارها "الرجل الوسيط" أو اعتبارها "السيد ذو النية الطيبة"، كما تميل هذه التعريفات إلى أن تجعل من رجل العلاقات العامة محللا للرأى العام وداعية فى نفس الوقت، فهو يحلل ويفسر ويقيس أمزجة الناس واتجاهاتهم ورغباتهم وردود أفعالهم المحتملة التى تتصل بالمؤسسة - أو الجماعة، أو الشخص أو الحكومة - التى يعمل لديها رجل العلاقات العامة أو لحسابها. ورجل العلاقات العامة فى عمله كداعية، إنما يحاول أن يجعل صورة موكله (المؤسسة - الحكومة - الشخص.. إلخ) فى أحسن شكل ممكن، أمام الجماعات والجماهير المختلفة، مستعينا فى ذلك بوسائل الإعلام وأساليبه الفنية المتباينة.

٥- **التعليم والتثقيف**: ولأن هذا الشكل هو أيضا موضوع رئيسى فى دراستنا الحالية، فإننا نرجئ تناوله إلى أجزاء تالية، سنفصل فيها الكثير من الجوانب ويمكن لنا هنا أن نحيل القارئ إلى مفهوم الاتصال من وجهة نظر التربويين كما عبر عنها جون ديوى، والتى سبق لنا تناولها.

عصر ثورة المعلومات:

وأيا ما كانت قناة الاتصال، فإنها لابد وأن تكون محملة "بمعلومات". وإذا كانت المعلومات مقارنة لبدايات التقدم الإنسانى منذ أقدم العصور، إلا أنها فى عصرنا الراهن تحتل مكانة ما كان لأحد أن يحلم بمثلها قط من قبل.

وتتعدد التسميات التى تطلق على عصرنا الراهن، نذكر من هذه التسميات:

- مجتمع ما بعد الصناعة.
- مجتمع ما بعد الحداثة.

---

(٣٧) الاتصال بالجماهير، ص ١٦٨.

(٣٨) نبيل على: العرب وعصر المعلومات، الكويت، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة (١٨٤)؛ إبريل ١٩٩٤، ص ١٣.

- مجتمع المعلومات.
- الموجة الثالثة.

أولها صاغه دانيال بل (Bell,D)، وربما يكون قد سبقه إليه آلان تورين، عالم الاجتماع الفرنسى وأحد أقطاب المدرسة البنيوية، وذلك فى محاولته كشف أنساق النمو الاجتماعى وتحليل الطبقية فى المجتمع الحديث.

أما المرادف الثانى، فيمكن اعتباره النظير الفلسفى لسابقه ذى الطابع التكنولوجى، ويرتبط فى سياقنا الراهن برؤية فيلسوف ما بعد البنيوية جان فرانسوا ليوتار Loytard, J.F حول تغير طبيعة المعرفة وآليات إنتاجها وتواصلها داخل المجتمع على أثر انتشار الكومبيوتر ونظم المعلومات، ومن علماء الاجتماع والفلاسفة إلى المبشرين، وما أكثرهم، وعلى رأسهم يونيجى ماسودا اليابانى (Masuda,Y) فى دراسته المستقبلية الشهيرة عن مجتمع المعلومات عام ٢٠٠٠ التى يطرح فيها تصوره عن تحول مجتمع اليابان إلى مجتمع مغاير بشدة، مغاير فى أشكال تنظيماته ومؤسساته وصناعاته وطبيعة سلعه وخدماته، وأدوار أفراده وحكامه، ونسق القيم والمعايير التى تولد الغايات وتحكم العلاقات بين الأفراد والجماعات والمؤسسات داخل هذا المجتمع.

أما رابع هذه الأسماء فصاحب الكتاب الأمريكى الشهير (الفين توفلر) Toffler,E فى محاولته لتنميط حركة الارتقاء الحضارى مبشرا بقدوم موجة ثالثة بعد موجتى الزراعة والصناعة - تحمل فى طياتها أنماطا جديدة للحياة، من أبرز ملامح هذا النمط المجتمعى الجديد استخدامه مصادر طاقة متنوعة ومتجددة، وطرق إنتاج جديدة، وقيامه على علاقات ومؤسسات تختلف اختلافا جادا عن تلك التى عهدناها خلال الموجة الثانية[٣٩].

ولقد طرأ على المعلومات فى حياتنا المعاصرة تحولات أساسية نقلتها من مادة نادرة

(٣٩) المرجع السابق، ص ١٤.

محدودة قابلة للنفاذ بحكم الاستخدام أو تجاوز الزمن إلى طاقة متجددة النمو والانتشار بغير حدود. وأصبحت ضرورة ملحة لكل إنسان أسوة بالهواء والماء والغذاء، حتى إنها إذا انحبست عنه أو تلاشت اعتل واختنق. وأصبح المعيار النهائى لقوة الدول هو ما تملكه من معلومات - كما ونوعا - ومن قدرة على السيطرة على هذه المعلومات وتوجيهها والإفادة منها وماوراء هذه المعلومات والقدرة من تكنولوجيا عقلية وآلة متقدمة(٤٠).

إن "عصر المعلومات" الذى يعيشه العالم اليوم وسيعيشه غدا - بحول الله - ما كان يمكن أن يكون أو يستمر بغير الثورة العقلية والصناعية الثانية التى شهدها العالم - أو بعبارة أدق بعض أجزاء العالم - منذ سنوات الثورة العقلية التى زادت فكر الإنسان انضباطا وزودته بنظم ومناهج وأدوات فى البحث والاستقصاء أكثر دقة، فى الوقت الذى مكنته من أن يكسر الحواجز بين التخصصات ويمتد إلى آفاق ومجالات خارج الأرض التى يوجد عليها، والثورة الصناعية التى عبرت عن نفسها على وجه الخصوص فى الإنجازات الإلكترونية وما وفرته للمعلومات من أجهزة وإمكانات وهياكل ارتكازية تيسر استقبالها وجمعها وتخزينها واسترجاعها وبثها ونشرها واستخدامها بصرف النظر عن حدود الزمان والمكان (٤١).

ومن الأرقام التى تشير إلى مظهر من مظاهر ثورة المعلومات(٤٢):

- قُدِّر الناتج الكلى لصناعة المعلومات سنة ٢٠٠٠ ب ١٠٠٠ بليون دولار لتكون أول صناعة فى تاريخ العالم تحقق رقم التريليون.
- سعى مطورو نظم السوبر كمبيوتر حاليا للوصول إلى سرعة تريليون (مليون مليون) عملية حسابية فى الثانية الواحدة وهو ما يوازى ٥٠ إلى ١٠٠ مرة الرقم القياسى لسرعته سن ١٩٩٣.

---

(٤٠) محمد أحمد الغنام: التعليم والإعلام من أجل تربية أفضل للمواطن العربى، فى: مكتب التربية لدول الخليج، ندوة (ماذا يريد التربويون من الإعلاميين)، الرياض، ج٢، ١٩٨٦، ط١، ص٦٣.

(٤١) المرجع السابق. ص٦٤.

(٤٢) العرب وعصر المعلومات، ص ١٨٠.

- يمكن حاليا تخزين النصوص الكاملة لألف كتاب بحجم القرآن الكريم على قرص ضوئى سى دى CD-ROM واحد تبلغ زنته ١٥ جراما ولا يتجاوز قطره ١٢ سم تقريبا.
- جرى تصميم شبكات لنقل البيانات بمعدل ٣ جيجا بايت يمكنها - حسابيا - نقل مضمون يوازى ٥٠٠ كتاب فى الثانية الواحدة.
- لا تتعدى نسبة استغلالنا لشبكات القمر الصناعى العربى (عربسات) ٢٨٪.
- ثلث المهندسين فى وادى السليكون فى كاليفورنيا الذين يقدر عددهم ب ٧٠ ألف مهندس، ينحدرون من أصول صينية.
- تترجم مصر، أكثر الدول العربية سكانا، مائة كتاب فى العام، مقابل ٢٥ ألف كتاب يترجمها اليونانيون، و١٨ ألف كتاب يترجمها الأتراك، وتترجم كتابًا واحدا، مقابل ألف وسبعمائة كتاب يترجمها اليابانيون.

من المؤشرات الدالة على مدى دخول الوطن العربى عصر المعلومات، مقارنة إنتاج وتوزيع الكتب إلى السكان خلال بعض الفترات فى بعض المناطق الأخرى من العالم، فقد كانت الكتب المنشورة لكل مليون من السكان فى الوطن العربى سنة ١٩٦٠ حوالى أربعين كتابا، أما فى الدول الصناعية فبلغت ٢٩٦، والنامية ٣٥ وأمريكا اللاتينية ٧٩، ثم تتطور على التوالى إلى ٤٠، ٨٨، ٤٤، ١١٩سنة ١٩٨٠ وسنة ١٩٨٦ تصبح ٣٦، ٥٠٤، ٥٨، ١٢٩[٤٣].

فإذا ما نظرنا إلى التوزيع النسبى للكتب المنشورة نجد أنها بلغت سنة ١٩٦٠ فى العالم العربى ٤,١٪ بينما فى الدول الصناعية ٤٠,٥٪ و٥٨,٤ فى الدول النامية و٩,٣٪ فى أمريكا اللاتينية، وتتطور سنة ١٩٨٠ بنفس الترتيب إلى ٣,٧، ٢٦,٢، ٧٣,٨، ٨,١، أما سنة ١٩٨٦ فتصير ٤,٠، ٢٤,٤، ٧٧,٦، ٨,٤.

(٤٣) حامد عمار: التنمية البشرية، من ص١٩٢، وما بعدها.

أما نصيب الفرد من إنتاج واستهلاك المواد المطبوعة فقد تطور سنة ١٩٧٠ على التوالى من ٠,٤، ١٧,٨٢، ٠,٠٩، ٣,٨ ليبلغ سنة ١٩٨٠، ٠,٧، ١,٢، ٣,٦، وسنة ١٩٨٥ يتغير إلى ٠,٩، ٢٠,٩، ١,١، ٣,١.

وبالنسبة لعدد العلماء، فى العلوم الطبيعية، الذين نشرت أبحاثهم فى مجلات علمية من البلدان العربية مقارنة بإسرائيل، مع الأخذ بعين الاعتبار عدد الدول العربية (٢١) وعدد سكانها حيث كان يزيد على ١٢٠ مليون، بينما إسرائيل دولة واحدة يقرب عدد سكانها من خمسة ملايين.. ماذا تقول المقارنة؟

كان العدد بالوطن العربى ٧٥٠ وإسرائيل ١٧٣٩، فبلغ عام ١٩٨٣، ٢٦١٦ و٤٦٦١ على التوالى.

والقضية الأم التى يمكن استقراؤها من التقارير الخاصة بتوزيع مؤشرات الإعلام والمعلومات فى العالم، أن العالم اليوم - مع كل ما حققه فى جملته من تقدم فى مجال المعلومات وتقنياتها، يعيش "نظاما" مختلا، صارخ المفارقات بين أجزائه فى "الإعلام والاتصال" مما يؤثر سلبا على "حرية المعلومات" وعلى "عدالة توزيعها" وعلى "سهولة تداولها" والإفادة منها وتوظيفها لأغراض التنمية وتعزيز الذاتية الثقافية للشعوب والأمم النامية، هذا النظام الدولى للإعلام والاتصال تحكمه اعتبارات دولية، سياسية واقتصادية واجتماعية وحضارية تجعله وجها آخر للنظام الاقتصادى الدولى الذى يغذيه ويتغذى به، وما لم يتغير هذان النظامان فستظل دول العالم النامى فى جملتها، بطيئة الحركة - بل مشلولة فى كثير من الأحوال - فى نموها الاقتصادى والاجتماعى والثقافى(٤٤).

ولعل أشد ما يعيشه العالم الآن من مفارقات فى نظامه الإعلامى المعلوماتى هو توزيع المعلومات وإمكانات تخزينها واسترجاعها ونشرها بين أجزائه. ففى حين تنعم الدول المتقدمة التى لا يزيد سكانها عن ربع سكان العالم بفيضان هذه المعلومات وإمكاناتها، نجد الدول النامية - فى جملتها - تعانى قلة أو ندرة فى المعلومات وما تقوم

(٤٤) محمد أحمد الغنام، ص ٦٤.

عليه من إمكانات وبنى قاعدية، حتى أن بعضها يبدو وكأنه بعيد عن عصر المعلومات، وبسبب المفارقات الكبيرة بين الدول المتقدمة والدول النامية فى حظها من المعلومات، تتدفق هذه فى "اتجاه عمودى" واحد من "أعلى" إلى "أسفل" - من "الشمال" إلى "الجنوب"، حاملة معها فى كثير من الأحوال الفرض والإملاء والمنح والمنع، والمصلحة الشخصية والتغرض(٤٥).

وبذلك نأتى إلى بعد آخر فى القضية وهو بعد "المحتوى الإعلامى"، وذلك أن التدفق "الأحادى الاتجاه" - من أعلى إلى أسفل - للمعلومات دون سياق ديمقراطى ومن غير ندية، ومساواة، ومن غير أخذ وعطاء مع القواعد، من شأنه أن يطبع المحتوى أو يطوعه لمصالح الجهة التى تتدفق منها المعلومات، فى الوقت الذى يباعد فيه بين هذا المحتوى وواقع المستقبل لهذه المعلومات العلمية والتكنولوجية عن الدول النامية، ولماذا تشوه بعض الحقائق المتعلقة بالحقوق المشروعة لبعض الدول أو الشعوب، وبمشكلات التنمية وبالقضايا الدولية والإقليمية، ولماذا يروج لبعض السلع والعمليات والاتجاهات، ولماذا تمجد أو تمتهن بعض الأعمال والثقافات؟ إلى غير ذلك مما نراه فى سوق الإعلام(٤٦).

وقد أسفر هذا الوضع فى توزيع المعلومات وإمكاناتها واتجاهات سيرها عن معاناة الدول النامية لدرجات متفاوتة من "التبعية الإعلامية" التى هى جزء من (التبعية الثقافية) وأداة من أدواتها فى الوقت نفسه.

وعندما نتأمل فى مسألة الهيمنة الغربية - حضاريا - على الوطن العربى، فسوف لا نستطيع أن نجادل فى أن الحضارة الغربية حدث ظاهر فى العالم، دخلت حياتنا وأثرت فى المجتمع وتغلغلت فى كل ركن من أركان كيان الأمة العربية، دخلت بقوة وبعنف وأحدثت تغيرات كبيرة فيه، ولا سيما فى أجزاء وطننا الذى تدفق عليه الخير، فقد فوجئ بها فانبهر بقوتها، و لم تمهله، وما تروت معه حتى يفهمها ويتمثلها، فهبطت عليه

(٤٥) المرجع السابق، ص ٦٥.
(٤٦) المرجع السابق، ص ٦٦.

المساوئ والمحاسن والتقنية العالية والاختراعات الرهيبة فى الآلة والرفاهية والمشرب والمسكن.

فالانبهار جاء نتيجة المعاناة القاسية والضياع الروحى ورد فعل للقاعدة الفكرية العربية الصلبة عندما أضاعت الوعى العميق والأصالة الحضارية النابعة من التراث الأصيل فى فكرنا وتقاليدنا وطراز حياتنا التى ما تزال حية، ولم يعصم هذا التراث ولا هذه الحضارة العرب من حضارة الغرب، لأن العرب تأثروا بالمظاهر البراقة والأنماط السطحية منها، ولم يفرقوا بين الحضارتين وفهم أسس بنائهما، فظن العرب أن التطور والتجديد منوط بالغرب وحده، وحاول جمهور من المتعلمين ووسائل الإعلام التأكيد على أن الحضارة الغربية هى أعلى حضارة إنسانية، وبإصرار عجيب وتكرار غريب وقدرة على الحركة والسرعة فى التغلغل إلى حياتنا وتلبية حاجاتنا وأمنياتنا وتحقيق أحلامنا فى مظاهر الحياة السطحية وترفها ولذاتها فى الاستهلاك والصرف والتبذير(٤٧).

وقد كانت ردة الحضارة الغربية عميقة فى الكيان الروحى وتراث أمتنا الحضارى عندما بدأ الشك يتسرب إلى النفوس واختلت النظرة للموروث الحضارى، وضاعت الثقة بالشخصية العربية وبمقدرتها على الإبداع وقابليتها فى الاختراع ومسايرة السيل الحضارى الغربى العارم، فاستسلم بعض العرب وآمنوا بالمظهر الصناعى بإنشاء الصناعة وبناء المعامل وجلب الأجهزة واستئجار الخبراء، دون الاعتماد على العلماء العرب وخبراتهم التى ساعدت على تطوير الأمم التى عملت من أجلها بعد أن أعد لهم الجو الفكرى الهادئ والوقت العلمى الكامل والمال وخدمة المعامل والمختبرات والمعاهد العلمية، بل تفوقت هذه المهارات العربية عندما تركت أوطانها ولجأت إلى أمريكا وأوربا، وأحيانا فضلت الهجرة من قطر إلى آخر بعد أن حمتها ومنحتها حرية البحث والعمل والإنتاج. وبرهن العربى على أن المفكر والمخترع هو الذى يخلق

(٤٧) يوسف عز الدين: التحدى الحضارى والغزو الفكرى، فى: ماذا يريد التربويون من الإعلاميين؟، ج٢، ص٢١.

الآلات ويبدع المكائن ويطورها متى وجد المناخ صالحا والنية خالصة، ويضيع عمله ويذوب فضله عندما تضيع شخصيته وتدمر كرامته(٤٨).

وإذا ما بحثنا عن "مكان" التعليم فى هذه الثورة الحضارية عن طريق المعلومات، فإننا إذ نستعيد هنا المقولة التى تؤكد أن كل تغيير مجتمعى، لابد وأن يصاحبه تغيير تربوى، إلا أن الأمر، نتيجة للنقلة النوعية الحادة الناجمة عن تكنولوجيا المعلومات لا يمكن وصفه بأقل من كونه ثورة شاملة فى علاقة التربية بالمجتمع. إن هناك من يرى أن النقلة المجتمعية التى ستحدثها تكنولوجيا المعلومات، ما هى فى جوهرها إلا نقلة تربوية فى المقام الأول، فعندما تتوارى أهمية الموارد الطبيعية والمادية وتبرز المعرفة كأهم مصادر القوة الاجتماعية تصبح عملية التنمية البشرية – التى تنتج هذه المعرفة وتوظفها – هى العامل الحاسم فى تحديد قدر المجتمعات، وهكذا تداخلت التنمية والتربية إلى حد يشبه الترادف(٤٩).

وتبرز علاقة المعلومات بالتربية، خاصة جانبها التعليمى بشكل مباشر إذا ما نظرنا إلى التعليم بصفته فن اقتناء المعرفة، ملاحقتها وتوصيلها، فلو نحن تمعنا فى المهام الأساسية للتعليم من حيث تقويم المادة وعرضها، وتقويم أداء الطالب وتوجيهه، وإعداد المناهج وتطويرها، والقيام بالبحوث التطبيقية والأساسية، وإدارة عملية التعليم ووضع سياساته، لو تمعنا كل ذلك لاتضح لنا على الفور أن جميع هذه المهام التعليمية فى جوهرها ذات طابع معلوماتى إلى درجة اعتبار نظام التعليم برمته ضمن قطاع المعلومات(٥٠).

وظيفة الإعلام:

تميز القرن العشرون بأنه بالفعل عصر الاتصال الجماهيرى، فلقد أصبحت الصحف والراديو والتلفزيون والمجلات الرخيصة والسينما وكتب الجيب، من الأدوات

---

(٤٨) المرجع السابق، ص٢٢.

(٤٩) العرب وعصر المعلومات، ص ٣٨١.

(٥٠) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

الأساسية لنقل الحقيقة والخيال والمعلومات الجدية والترفيهية وأساليب الحياة وأنماطها فى مختلف المجتمعات. ولقد ساعدت الثورة التكنولوجية فى الإخراج أو التوزيع على جعل الاتصال الجماهيرى ميسرا، لا يكلف غير القليل من الجهد والمال، ففى مطلع القرن العشرين، لم يكن العالم يعرف ثلاثا من وسائل الإعلام الجماهيرية المعروفة حاليا، وهى السينما والراديو والتلفزيون، وحتى الوسائل القديمة، مثل الصحف والمجلات الرخيصة، لم تكن قد وصلت بعد إلى الدرجة التى وصلت إليها فى وقتنا الحاضر(٥١).

والمعروف أن الراديو حينما ظهر، لم ينجح فى القضاء على الصحافة، بل كيفت الصحافة نفسها لمواجهة ظهور الراديو، فأصبحت تنشر صورا أكثر وأخبارا أكثر. وقد أثبتت دراسات مختلفة أن الاستماع إلى الراديو لا يتنافى بالضرورة مع قراءة المواد المطبوعة ولكنه مكمل لها، ففى حالات كثيرة، ينشط الاستماع إلى برنامج إذاعى قراءة الصحف، فالذين يستمعون إلى الأخبار أو المناقشات الإذاعية تتوافر لديهم معلومات مختصرة تشوقهم لمعرفة تفاصيل أكثر، لذلك زاد توزيع الصحف فى مجتمعات عديدة بعد ظهور الراديو، وقد ثبت أن التعرض لوسيلة إعلامية يزيد بشكل عام التعرض لوسيلة أخرى(٥٢).

وحينما ظهر التلفزيون بعد الحرب العالمية الثانية، كيفت الصحف نفسها مرة أخرى، فقللت من المواد الترفيهية وأكثرت من المواد التى تعطى خلفية وافية عن مختلف الأحداث، و لم يستطع التلفزيون أن يحل محل الصحف وإن كان قد أضر بعض الشىء بصناعة السينما كما أضر بالمجلات العامة والمجلات التى كانت تركز على نشر الطرائف والمجلات المصورة. ولكن لم ينجح التليفزيون فى التأثير على المجلات الراقية أو المجلات السياسية التى تضاعف توزيعها منذ ظهور التليفزيون. ويبدو أن السبب

(٥١) جيهان روشتى، ص ٣٥٨.
(٥٢) المرجع السابق، ص ٣٦٠.

فى تأثر المجلات التى كانت تستميل العناصر الأقل تعليمـــا هو أن التليفزيون نجح فى جذب تلك العناصر فى حين كان من المستبعد أن يترك المتعلـــم قراءة الدوريات الجادة(٥٣).

ومن أهم الخصائص المميزة للإعلام أنه ذو اتجاه واحد غالبا، وقلما يكون هناك طريق سهل أو سريع للقارئ، أو المشاهد، أو المستمع، لكى يرى أو يسأل أسئلة، أو يتلقى إيضاحات إذا هو احتاج إليها.

وثانية هذه الخصائص. أن الإعلام يتضمن قسطا كبيرا من الاختيار، فالوسيلة، مثلا، تختار الجمهور الذى ترغب فى الوصول إليه، عندما تتخصص فى إشباع احتياجات نوعية معينة من هذا الجمهور. فمجلة (دراسات تربوية) - القاهرة - مثلا استهدفت جمهورًا من الباحثين والمهتمين بالمجالات التربوية. ومن ناحية أخرى، فإن جماهير المستقبلين يختارون من بين هذه الوسائل، فهم يقررون ما إذا كانوا سوف يشاهدون التليفزيون، أو يقرأون كتابا، أو صحيفة وهم يختارون ما يشاءون من المضمون المتاح لهم، فقد يشاهدون برنامجا تلفزيونيا إخباريا، أو أنهم قد يحولون مفتاح الجهاز إلى قناة أخرى، حيث يعرض برنامج للفوازير، كما أنهم يختارون الأوقات التى يستخدمون فيها وسائل الإعلام(٥٤).

وثالثة هذه الخصائص، أن الأمر يحتاج فعلا إلى عدد من وسائل الإعلام أقل مما كان مستخدما من قبل، وذلك لأن الوسائل تستطيع الوصول إلى جماهير ضخمة ومنتشرة انتشارا عريضا، فلكى نبعث برسالة عبر البلدان العربية كلها عن طريق الصوت البشرى وحده، يحتاج الأمر إلى أعداد هائلة من المتحدثين، ولكن شبكة إذاعية واحدة، تستطيع أن تصل إلى الملايين من الناس فى الوقت نفسه.

ورابعة هذه الخصائص، أن وسائل الإعلام فى سعيها لاجتذاب، أكبر عدد من

---

(٥٣) المرجع السابق. الصفحة نفسها.

(٥٤) وسائل الإعلام والمجتمع الحديث، ص ٣١.

الجمهور تتوجه إلى نقطة متوسطة افتراضية يجمع حولها أكبر عدد من الناس، ونادرا ما تكون هذه النقطة هى أدنى المستويات، غير أنها ترتفع تماما إلى المستوى المتوسط فى كثير من أجهزة الإعلام.

وخامسة هذه الخصائص، أن الاتصال يتم فى الإعلام بواسطة مؤسسة اجتماعية تستجيب إلى البنية التى تعمل فيها، ولا تؤثر وسائل الإعلام فى النظام السياسى والاقتصادى والاجتماعى الذى تعمل فيه فحسب وإنما تتأثر أيضا بذلك النظام. ومن ثم، فعلينا أن نفهم المجتمع لكى نفهم وسائل الإعلام التى تعمل فيه فهما صحيحا، ولكى نفهم المجتمع، ينبغى أن ندرس تركيبه وأفكاره الكبرى ومعتقداته الرئيسية وكل ذلك معناه أن معرفة التاريخ والاجتماع والاقتصاد والفلسفة، ضرورة لكى نفهم وسائل الإعلام فهما حقيقيا(٥٥).

وتقوم وسائل الإعلام بوظائف مهمة وخطيرة، يمكن إيجازها فيما يلى:

١- **التوجيه:** فمع أن العبء الأكبر فى مجال تكوين الاتجاهات الفكرية المرغوبة عند النشء واقع على المدرسة، إلا أن المجتمع نفسه بجميع مؤسساته الدينية والاجتماعية والرياضية والإعلامية له دور كبير فى هذا المجال.

وتتطلب عملية تكوين الاتجاهات هذه أو تعديلها، التنسيق بين مجهود المدرسة والمجتمع لما تحتاجه من وقت طويل ورعاية يستمران إلى ما بعد انتهاء التلميذ من دراسته، ولأنها عملية متجددة وبخاصة عندما يمر المجتمع فى مرحلة إصلاح اجتماعى، تتغير فيه القيم الاجتماعية أو تظهر فيه قيم جديدة.

وفى المجتمع، بالإضافة إلى الطلاب، نسبة غير قليلة من المواطنين لم تتح لهم فرصة التعليم النظامى فى المدارس أو فرصة استكماله، ولذلك تقع على مؤسسات المجتمع المختلفة - وبخاصة مؤسسات الإعلام - مسئولية إكساب هؤلاء الاتجاهات الفكرية اللازمة للتطور(٥٦).

---

(٥٥) المرجع السابق، ص ٣٢.

(٥٦) فتح الباب عبد الحليم وزميله، ص ٦٦.

هل تستطيع وسائل الإعلام إكساب الجماهير اتجاهات جديدة أو تعديل اتجاهاتهم القديمة؟

الإجابة السريعة على هذا السؤال: نعم، ولكنها مشروطة بحسن اختيار المادة الإعلامية، وملاءمتها للجمهور المستقبل، وتقديمها له فى ظروف مناسبة. وقد أيدت البحوث هذه الإجابة، وبينت قدرة وسائل الإعلام على إكساب الجماهير اتجاهات جديدة، أو التعديل من اتجاهات تقليدية إذا ما وجهت وسائل الإعلام هـذا الاتجاه.

ونظرا لهذا الدور الكبير الذى يمكن أن تقوم به أجهزة الإعلام فى هذا الجانب خاصة إذا سار فى طريق معاكس للتوجهات العامة للمواطنين، اتجهت الدول إلى محاصرة الآثار السلبية عن طريق(٥٧):

أ- الرقابة على وسائل الإعلام المستوردة كالأفلام السينمائية والكتب والمجلات وبرامج التليفزيون، وهذا هو الجانب السلبى.

ب- الاهتمام بدحض وجهات النظر الأخرى التى تتعارض مع وجهات النظر المحلية أو تختلف معها، وذلك لتثبيت القيم القومية.

ج- تنمية مقدرة المواطنين على التعامل الذكى مع وسائل الإعلام بحيث لا يتقبلون كل ما تقدمه لهم وسائل الدعاية، بل يتفاعلون معها بفكر ناضج واعٍ ناقد. وتنمية هذه القدرة أمر جد خطير لأنها نوع من الرقابة الفردية التى يمارسها كل فرد فلا تتبلبل أفكاره، ومن ثم لا يتعطل اشتراكه الفعال فى تطوير مجتمعه. ومما يزيد من أهمية تنمية هذه القدرة صعوبة الرقابة على بعض مواد الدعاية كالبرامج الإذاعية.

وتبدأ الخطوط الأولى لتنمية هذه القدرة فى المرحلة الأولى من التعليم حيث

(٥٧) المرجع السابق، ص ٥٨.

يدرب الطالب على القراءة والاستماع والمشاهدة الواعية الناقدة ثم يستمر الاهتمام بها على مستوى المراحل التعليمية، كما يجب الاهتمام بها أيضا على مستوى الجمهور العام بتقديم مواد إعلامية تهدف إلى تنمية هذه القدرة وتغذيتها.

٢- **التثقيف**: والتثقيف زيادة المعرفة بغير الأسلوب الأكاديمى المتبع فى المدارس، خاصة فيما يتصل بنواحى الحياة العامة. وتساعد هذه الزيادة على اتساع أفق الفرد وفهمه لما يدور حوله من أحداث، والتثقيف بالنسبة للفرد عن طريق وسائل الإعلام، إما أن يكون عارضا أو مقصودا(٥٨).

والتثقيف العارض، يشمل جوانب المعرفة التى يكتسبها الفرد بتعرضه لوسائل الإعلام دون قصد أو تخطيط سابق منه، كأن يشاهد برنامجا ترفيهيا فى التليفزيون عن قصة وقعت حوادثها فى القرون الوسطى فيتمتع بالبرنامج ويعرف منه فى الوقت نفسه أشكال ملابس القرون الوسطى وآلاته الموسيقية وبدائية أثاثه.. وهكذا. وتزيد فرص التعليم العادية كلما كان محتوى المادة الإعلامية جديدا غير مألوف أو معروضا بوجهة نظر جديدة.

والتثقيف المقصود هو حصيلة اتجاه الفرد إلى وسائل الإعلام وتفاعله معها بهدف معين وبخطة طويلة أو قصيرة. ويتوقف علىعمله اتجاه الفرد نحو الإفادة من هذه الوسائل. وينقسم هذا الاتجاه إلى نوعين: موجه وحر(٥٩).

فأصحاب الاتجاه الموجه هم الجمهور الذى يقصد وسائل الإعلام بتوجيه سابق من عالم أو مرشد، لزيادة معلوماتهم وخبراتهم فى منهج يدرسونه أو موضوع يبحثونه أو مشكلات عامة.

وأصحاب الاتجاه الحر، هم الأفراد المدفوعون بالرغبة الذاتية فى العلم ليساعدهم

---

(٥٨) عبد اللطيف حسين فرج: الهدف التربوى لدى المخطط الإعلامى، فى: ماذا يريد التربويون من الإعلاميين، ج١، ص ٣٠٣.

(٥٩) المرجع السابق، ص ٣٠٥.

على فهم الحياة، أو على حل مشكلات معينة تواجههم، ولذلك فاتجاههم ينبعث من أنفسهم لا يوجههم فيه أحد كمدرس، أو مرشد اجتماعى، ولذلك أيضا يكون اختيارهم للوسيلة الإعلامية ولمادتهم مطلقا إلا من التوجيه الذاتى الذى رسموه لأنفسهم(٦٠).

٣- **التعارف الاجتماعى**: لوسائل الإعلام دور كبير فى عملية التعارف الاجتماعى. والمقصود بالتعارف الاجتماعى زيادة احتكاك الجماهير بعضهم بالبعض الآخر، ولو من الناحية العقلية، ولهذا الدور جانبان رئيسيان: الأول أن وسائل الإعلام تقوى الصلة الاجتماعية بين الأفراد، فالجرائد الصباحية مثلا تحمل فى صفحة الاجتماعيات وأخبار المجتمع، وفى صفحة الوفيات أخبارا مختلفة تزيد من التعارف الاجتماعى، فهذا كان مريضا، يشكر طبيبه المعالج، وهؤلاء أعضاء مؤسسة يشكرون المسئولين لعنايتهم بمشكلتهم الخاصة. وذلك صديق يهنئ صديقه بالتخرج فى الجامعة وصديق آخر ينعى عزيزا وافاه القدر.. وهكذا نرى لوسيلة الإعلام دورا اجتماعيا فى زيادة الصلة بين الأفراد سواء الأصدقاء والرؤساء أو المرؤوسين، عن طريق إظهار تعاطفهم فى أسلوب رقيق يعبر عن مشاعرهم(٦١). هذا بالإضافة إلى أن سهولة انتشار وسائل الإعلام تجعل ما تنشره على الناس مادة للحديث وتبادل الآراء، ومن ثم زيادة التعارف الاجتماعى.

الثانى، أن وسائل الإعلام تقدم للناس الشخصيات الشهيرة، أو تخصص جزءا من مساحتها الزمنية أو الشكلية لتعريف الجماهير بالشخصيات التى تقوم بدور فريد فى المجتمع: تقدم فنانا من الفنانين، أو عالما من العلماء أو زعيما مخلصا، وقد تتمادى عن قصد أو غير قصد فى مجال الحديث عن الفنانين، فتعرض لحياتهم الشخصية بتفصيلاتها.

---

(٦٠) المرجع السابق، ص ٣٠٧.

(٦١) فتح الباب عبد الحليم وزميله، ص ٧٣.

من هنا اتسعت دائرة أصدقاء الإنسان فى القرن العشرين، فبعد أن كانت قاصرة على من يتعامل معهم تعاملا مباشرا أو على من سبق أن تعامل معهم وجها لوجه، اتسعت فشملت أناسا رأى صورهم فى الجرائد أو على شاشة التليفزيون أو شاهد تمثيلهم فى فيلم سينمائى، ومع أن هذه الصداقة من جانب واحد فقط، فهى من جانب الجماهير إلى القلة، لكن تأثيرها على الجماهير لا يقل عن آثار الأصدقاء المباشرين. وكثيرا ما نلمس ذلك فى مضاهاة الناس لبعض صفات شخصيات أبطال السياسة والسينما والرياضة[٦٢]... إلخ.

٤- **الترفيه**: ولعل هذا الجانب بصفة خاصة يكاد يغلب فى بعض الأحيان فى وسائل الإعلام، ذلك أن للترفيه سحرا قويا، فبالرغم من أن الصحف قد أصبحت أكثر اهتماما بالأخبار فى السنوات الأخيرة، فلا نزاع فى أن بعض مضمون الصحف يهدف ببساطة شديدة إلى تسلية القراء. وقد أظهرت الدراسات أن الراشدين من قراء الصحف يلتفتون إلى المقالات الخفيفة والأشرطة المتتابعة والرسوم أكثر من التفاتهم إلى المعلومات حول المسائل العامة أو الإعلانات. وقد أثبت أحد البحوث أن نحو نصف قراء الصحف اليومية يقرأون العنوان الرئيسى العريض على الصفحة الأولى، ولكن نحو الثلثين يقرءون الأشرطة المتتابعة، وتطلع نسبة أكبر من ذلك على الصفحة المصورة أكثر من أى شىء آخر فى الصحيفة[٦٣].

ويشار إلى السينما والإذاعة عامة، على أنهما من صناعات الترفيه، وأن تسلية الجمهور هى مهمتهما الأساسية. وقد تكون القوة التى تجذب الناس إلى دور السينما هى نجم معين أو قصة واعدة، ولكن الأساس هو جاذبية الترفيه، فالناس يذهبون إلى السينما للاستمتاع بالهرب من الهموم والرقابة وللتزود بأحلام اليقظة.

---

(٦٢) المرجع السابق، ص٧٧.

(٦٣) وسائل الإعلام والمجتمع الحديث، ص ٣١٢.

ولا يعنى هذا أن للترفيه جانبا غير ذى قيمة، ذلك أنه يمكن أن ننظر إليه من جانب إيجابى، فالترفيه ضرورى لمنح الراحة التى تمكن البشر من مواجهة متطلبات الحياة الحديثة - أو حتى متطلبات الحياة فى عمومها فقط - وليس لنا جميعا المشاعر نفسها، فصفوة المثقفين يفضلون أن يتخذ الترفيه عندهم أشكالا مختلفة عن الأشكال التى يقبلها ذوو الثقافة المتواضعة، ومع ذلك فهو ترفيه، مهما يكن أسلوبه الفنى، أو مضمونه المثقل بالمعانى، والناس بحاجة إلى الاسترخاء[٦٤].

وقد تكثفت الوظيفة الترفيهية لوسائل الإعلام، كما تأثرت بطرق أخرى، عندما انتقلت وسائل الإعلام من جمهور محدود نسبيا إلى جمهور شعبى عريض. ويستطيع المرء أن يجد فى طبيعة نظام الإعلام، تفسيرا لما يشكو منه النقاد من أن وسائل الإعلام قد أسهمت، فى أحسن الأحوال، إسهاما قليلا فى الفن، كما أنها قامت، فى أسوأ الحالات، بإفساد الفن الشعبى من ناحية، وطمس الخط الفاصل بين التنوير والترفيه من ناحية أخرى، فالفن والتعليم يستندان إلى التلقى الناقد الواعى، أما الظروف التى تعمل فيها وسائل الإعلام، فإنها تجعل مثل هذا التلقى متعذرا[٦٥].

ويرى بعض المراقبين أن الترفيه فى وسائل الإعلام يعطى صمام أمن للعدوان المكبوت والدوافع المنحرفة، وعلى ذلك فإنه يؤدى وظيفة نافعة اجتماعيا.

وسائل الإعلام:

إذا كانت درجة الثقة التى يضعها الفرد فى الوسيلة تؤثر على فاعليتها وعلى إيمان الفرد بالمعلومات والآراء والتفسيرات التى تنقلها، وإذا كانت الوسائل تختلف فى درجة الثقة فيما تقدمه، يمكن أن نتوقع وجود اختلافات بين الوسائل من ناحية فاعليتها، ففى بعض المجتمعات نجد الجمهور يثق فى الجريدة أكثر من الراديو، وفى مجتمعات أخرى العكس هو الصحيح. ويرجع هذا إلى حد ما إلى الإيمان بأن وسيلة أو أخرى

(٦٤) المرجع السابق، ص ٣١٣.
(٦٥) المرجع السابق، ص ٣١٥.

تعبر عن وجهات نظر معينة، أو تسيطر عليها مصالح خاصة، أو أنها مستعدة ببساطة أن تبيع نفسها. وفى الدول النامية، الراديو والتعليم هما الوسيلتان الأساسيتان عند كثير من الناس لأنهما متوافرتان على نطاق أوسع من المطبوع، وتستخدم هاتان الوسيلتان أكثر لأنهما أقرب من الاتصال بالمواجهة الذى اعتادت عليه المجتمعات الانتقالية. لهذا تزيد أهمية هاتين الوسيلتين إذا قورنتا بالمطبوع، بينما نجد أن مكانة المطبوع أكثر ثباتا واستقرارا فى المجتمعات الحديثة التى اعتادت على المطبوع سنوات طويلة قبل ظهور الوسائل السمعية والبصرية[٦٦].

وعندما نتكلم عن وسائل الإعلام، فإننا نقصد الراديو والتلفزيون والصحافة، ويمكن إضافة بعض المخترعات الالكترونية الحديثة فى بعض الأحوال.

١- **الصحافة**: وكثيرا ما تلقب الصحافة بالسلطة الرابعة (إلى جانب السلطات التنفيذية - والتشريعية - والقضائية)، بل يعتبرها البعض السلطة الأولى.

ويعتبر تاريخ الصحافة هو تاريخ عناصر ومكونات كثيرة مما يجعل تتبع تاريخها عملية صعبة. وعلى أية حال فقط ظهرت الصحافة المطبوعة لأول مرة فى بلاد الصين فى عهد حكم أسرة تانج Tang فى القرن السابع الميلادى حين عرفت الصين فنون الحفر والطباعة القالبية. وكان اختراع الطباعة بالشكل المتحرك على يد جوتنبرج فى الفترة من ١٤٣٠ - ١٤٥٠م منسجما مع عصور النهضة الأوربية وإيذانا بسرعة نقل الأخبار وإصدار الصحف وذيوعها وانتشارها. وقد صدرت أول جريدة مطبوعة فى ألمانيا سنة ١٥٠٢م وكانت تسمى[٦٧] Nene Zeytung.

وقد وصلت المطبعة الشرق العربى فى أوائل القرن السابع عشر إلى (دير قزحيا) من أعمال الشام، وفى مدينة حلب أنشئت المطبعة العربية سنة ١٧٠٢، واقتصرت على نشر الكتب الدينية كالإنجيل والتعاليم المسيحية دون غيرها، وكانت مدينة الإسكندرية أول مدينة مصرية تقام بها مطبعة أدخلها نابليون سنة ١٧٩٨،

(٦٦) جيهان روشتى، ص ٣٦٤.

(٦٧) الاتصال بالجماهير، ص ٧٨.

وظهرت أول جريدة فى الوطن العربى فى مصر سنة ١٨٢٨ وهى الوقائع المصرية[٦٨].

ولكن ما الخصائص التى تميز الجريدة أو المطبوع بشكل عام علىغيره من الوسائل؟

تمتاز المواد المطبوعة بأنها الوحيدة بين الوسائل الإعلامية التى تسمح للقارئ بالسيطرة على ظروف التعرض، كما تتيح الفرصة له كى يقرأ الرسالة أكثر من مرة. كذلك يسمح المطبوع، أكثر من أية وسيلة أخرى، بتطوير الموضوع فى أى طول وبأى تعقيد تظهر الحاجة إليه. وتشير التجارب إلى أن المواد المعقدة، من الأفضل تقديمها مطبوعة من تقديمها شفهيا، ولو أن الميزة نفسها لا تسرى على المواد البسيطة السهلة ومن الأفضل استخدام المطبوع أكثر للوصول إلى الجماهير المتخصصة والجماهير قليلة العدد، لأن استخدام وسائل الإعلام الأخرى فى الوصول إلى تلك الجماهير باهظ التكاليف[٦٩].

والصحافة تمتاز عن وسائل الإعلام الأخرى بأنها متعددة ومتنوعة، مختلفة مواعيد الصدور، فمنها الصباحى ومنها المسائى، ومنها اليومى، ومنها الأسبوعى، ومنها الشهرى، ومنها الفصلى، ومنها السنوى، وفيها الخبر والصورة والمقال والتحقيق الصحفى والحوار والحديث والتحليلات المتعمقة، وفيها الهجوم والدفاع، أى فيها الرأى والرأى الآخر، ومعظم من فيها يتميزون بالصراحة حيث لا يرحم بعضهم بعضا.

وعلى هذا تعتبر الصحافة عاملا أساسيا فى التربية السياسية والاجتماعية للمواطنين.

لكنها فى مجال التعليم المدرسى ونشره، ربما تكون قليلة الحيلة. ومع ذلك فإن ما ينشر فيها من الأحداث الجارية هو امتداد وإحياء لمادة التاريخ، وماينشر فيها عن

(٦٨) المرجع السابق، ص ٨١.
(٦٩) جيهان روشتى، ص ٣٦٦.

الأماكن والتجارة إحياء لمادة الجغرافية، وما ينشر فيها من شعر ونثر هو إحياء لدراسة الأدب والبيان ونماذج للأسلوب. ومن الممكن أن تنشر تباعا ترجمة رواية أجنبية تكون مقررة، ولكنها تقف عند حد أن تكون وسيلة مساعدة وليست أصلية تقدم البرامج التربوية بانتظام(٧٠).

٢- **الراديو**: لم يفطن إلى إمكان استخدام الراديو كوسيلة للإعلام سوى قليل من المراقبين، خلال السنوات الأول من ظهور الراديو، ففى السنوات المبكرة للتطور التكنولوجى للراديو، والتى أعقبت نجاح ماركونى فى إرسال رسالة قصيرة باللاسلكى سنة ١٨٩٥، كان ينظر إلى الراديو على أنه سوف ينافس التلغراف كوسيلة للاتصال من نقطة إلى أخرى، وكاختراع علمى مستحدث(٧١).

وهناك العديد من الخصائص الحسية التى تتمتع بها الإذاعة مما يجعلها أداة فعالة للمساهمة فى خدمة العملية التعليمية، إذ من الممكن لها أن توجه رسالتها إلى المستويات التعليمية المختلفة ابتداء من محو الأمية حتى التعليم الجامعى. كما تمتاز الإذاعة بسهولة التعرض لها دون أن تكلف المستمع شيئا أو الانتقال أو تغيير الملابس والاستعداد للخروج، كالذهاب للسينما أو المسرح مثلا، وفضلا عن هذا وذاك فهناك سهولة حمل جهاز الراديو ونقله من مكان إلى آخر(٧٢).

والإذاعة تستخدم الموسيقى والمؤثرات الصوتية أو التنغيمات اللغوية فى الصوت وفقا لطبيعة المواقف التربوية، الأمر الذى يكون عنصر فعالية وتأثير فى عملية التعليم والتثقيف، كما أن استخدام الموسيقى فى التعليم من خلال الإذاعة من شأنه أن يجذب انتباه المستمع ويستحوذ على انتباهه.

---

(٧٠) أبو الفتوح رضوان: الإعلام والرسالة التربوية، فى: ماذا يريدون التربويون من الإعلاميين، ج٢، ص ٤٠١.

(٧١) وسائل الإعلام والمجتمع الحديث، ص ٢٤٣.

(٧٢) ماجى الحلوانى حسين: تكنولوجيا الإعلام فى المجال التعليمى والتربوى، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٧٧، ص ٥٣.

وتستطيع الإذاعة أن تقدم الرسالة التربوية بكل أساليب الكلمة المنطوقة: الرواية، الحوار، المحاضرة، المناقشة، التعليق، التمثيلية، أو غيرها من الأشكال، كما تستطيع الإذاعة أن تزود العملية التعليمية بصور العالم المعاصر وأصواته وبكل أحداثه، كما تستطيع أن تعرض صور وأحداث التاريخ بواسطة المواد التسجيلية أو بواسطة إعادة تمثيل المواقف التاريخية.

وبحكم ما تتسم به الإذاعة من طابع السرعة والفورية، يمكنها أن تنقل الأحداث ذات الأهمية فى تطوير الرسالة التعليمية، كما تستطيع أن تجعل من التعليم أمرا كثير المرونة بما تسهم به من أقلمة سريعة لعالم سريع التغير، كما أنها تستطيع أن تستجيب بسرعة فائقة إلى أى تغيير فى المناهج التعليمية وإلى أية تطورات حديثة فى العلوم والتكنولوجيا، بل وفى ردود الناس أنفسهم. وبإمكان الإذاعة أيضا تقديم الكثير من التطورات والأحداث العلمية التى لم يتيسر طبعها بعد(٧٣).

٣- **التليفزيون**: وللتليفزيون معظم مزايا الراديو، فهو يصل إلى جمهور كبير وينتفع به حتى الأميون، ويمكن تعليم كل المواد الدراسية به، وإن كانت كل دراسة لا تصلح دون فرص للمناقشة، ولأنه يقوم على التمثيل، فهو جذاب والفهم منه سهل حتى على الأطفال ومن لم يتقنوا اللغة. وفى بعض البلاد أتم الأطفال تعليمهم الابتدائى عن طريق برامج تليفزيونية.

والتليفزيون فعال جدا فى شرح الأحداث الماضية والبيئات الغريبة والأماكن البعيدة، ويمكن أن يعرض الكائنات الصغيرة التى لا ترى بالعين المجردة، ويمكن أن توضح به العمليات التى تتم على فترة طويلة من الزمن أو على خطوات كثيرة كالصناعة، وهو فى غاية الفائدة فى تعليم المهارات العملية بدرجة لا تقل عن الرؤية المباشرة، فطلاب الطب يمكن أن يروا به حركات أصابع الجراح، وهو يجرى عملية جراحية بما لا يقل عن الرؤية المباشرة(٧٤).

---

(٧٣) المرجع السابق، ص ٥٤.

(٧٤) أبو الفتوح رضوان، ص ٣٩٨.

وللتليفزيون خصائص بعضها يعينه على أداء الكثير من الوظائف بفاعلية واقتدار وبعضها قد يشكل عقبة على طريق هذا الأداء، من هذه الخصائص[٧٥].

- التليفزيون وسيلة سمعية - بصرية. وهو يجتذب العين والأذن، ومن ثم فهو لا يملك القدرة على بث الأحاديث فقط، وإنما يبث أيضا ضوضاء، وموسيقى وتموجات صوتية، كما أنه لا يرسل الصورة فقط بل الصورة المتحركة بما فيها حركة الجسم والتعبيرات التى تنعكس على الوجوه.
- التليفزيون أسير الوقت (الزمن) فهو يعمل فى الزمن أكثر منه فى المساحة، فعلى سبيل المثال، حين يظهر إعلان تجارى لمدة دقيقة واحدة، فإن القارئ البطىء (أو المشاهد) لن يعطى وقتا أطول من المشاهد أو القارئ السريع كى يستوعب، وبما أن برنامج التليفزيون يظهر فى وقت محدد فليست هناك أى فرصة للمشاهد لانتقاء أجزاء محدودة منه أو لاسترجاع المواد التى شاهدها، فإذا تمت إذاعة برنامجين متشابهين بالتليفزيون فى وقت واحد، فإن المشاهد لن يجد فرصة للمقارنة بينهما إلا إذا كان يمتلك جهاز فيديو ليسجل عليه.
- محدودية قنوات التليفزيون*: يرجع بعض أسباب هذه المشكلة إلى محدودية نطاق الترددات العالية VHF، وذلك قبل تطوير نظام البث فى مجال الذبذبات فائقة العلو UHF. ويسهم الترخيص الخاص بمزيد من محطات الذبذبات فائقة العلو والتوسع فى التليفزيون السلكى زيادة عدد القنوات المتاحة للمواطن العادى فى بعض البلدان.
- التليفزيون وسيلة معقدة جدا وذات كلفة تشغيل عالية، تتطلب الكاميرات والأفلام وأشرطة الفيديو ومعدات البث والمعدات الأخرى عددا كبيرا من المتخصصين، بالإضافة إلى القائم بالاتصال نفسه والتكاليف المصاحبة لتشغيل هذه الوسيلة

(٧٥) الإعلام، وسيلة ورسالة، ص ١٠٤.

(*) حتى وقت كتابة الدراسة.

وتعتبر -بناء على ذلك - عالية جدا، والبرنامج ذو الطابع الشعبى أو العام الذى يستغرق ساعة من الوقت والذى يقدم فى الوقت الممتاز، قد يكلف أكثر من نصف دولار (فى الولايات المتحدة) أسبوعيا، تكلفة للإنتاج وثمن الوقت فى المحطات التابعة للشبكة(٧٦).

- ومن هنا نجد أن التليفزيون - فى معظم أنحاء العالم - يعتمد كثيرا على الإعلان لمواجهة تكلفته (التليفزيون)، مع مالهذا من احتمالات خضوع لسيطرة المعلنين واتجاهاتهم وأذواقهم.

التعليم والخروج من المأزق:

التعليم هو نوع متخصص من التنشئة الاجتماعية، وقد استوى مع الزمن نظاما اجتماعيا، قامت عليه، فى إطار تقسيم العمل، مؤسسات متخصصة، تشرف عليها أساسا الدولة، فى الصور المختلفة لمظاهره.

وقد حدث فى مجال التعليم تغييران بارزان: تغيير يتصل بالتصور الاجتماعى والسياسى، وتغيير آخر يتصل بالبناء الفنى والوظيفى، ولكنهما مرتبطان ارتباطا وثيقا.

أما من حيث التصور الاجتماعى والسياسى فقد أصبح التعليم، على المستوى القومى، واجبا من واجبات الدولة، ووظيفة أساسية من وظائفها العامة، فهو إذن حق، ليس للفرد وحده، ولكن للدولة والمجتمع أيضا، لأن المشاركة الفعلية والمواطنة الإيجابية لا تكونان إلا بالتعليم الذى هو مناط القدرة المنتجة، وهو واجب، ليس على الدولة والمجتمع وحدهما، ولكن على الفرد كذلك، لأنه سبيل تمكينه من أداء حقوق الدولة والمجتمع عليه.. وقد أثر هذا التصور على تطور التعليم، كما وكيفا، فانتشر التعليم انتشارا واسعا، وهو يتسع يوما بعد يوم، وبخاصة فى البلاد النامية التى بدأت مسيرتها الاجتماعية المعاصرة فى وقت متأخر،

(٧٦) المرجع السابق، ص ١٠٥.

وليس أكثر بيانا لذلك من تلك النسبة العالية من موازنات الحكومات، للتعليم بالنسبة للمجالات الأخرى[٧٧].

أما من حيث الكيف فإن من آثار هذا التصور، تنوع مجالات التعليم والبحوث العلمية، والتطبيقات التقنية، وارتباط العمل الاقتصادى والاجتماعى: إدارة وإنتاجا وإنفاقا بالتعليم، وما يؤدى إليه من مهارات وخبرات.

ومن جانب آخر، فقد قاد هذا الوضع الجديد للتعليم، سياسيا واجتماعيا واقتصاديا إلى تغيير تناول بالضرورة، أهدافه، وبنيانه، ووظائفه، ووسائله، فقد غطى التعليم الذى كان يقوم على تعليم القراءة والكتابة، إلى جانب الدراسات النظرية فى مجالات الفكر الفلسفى والدين والتشريع والآداب، كل جوانب الحياة المعاصرة، فلم يعد هناك نشاط اجتماعى متقن فى وجوه الحياة إلا ويقوم على التعليم.

إن تبدل علاقات الإنسان بالطبيعة عن طريق التعليم، فتح الباب واسعا أمام البحوث العلمية التجريبية، والتطبيقية، فأصبح التعليم، إلى جانب كونه نظاما اجتماعيا معقدا، صناعة متقدمة، فى تقنياتها، وإدارتها، وإنتاجها، بحيث اتسع وعاؤه فأصبح على امتداد الحياة، فقامت الحاجة إلى الدعوة إلى التعليم المستمر مدى الحياة وإلى ممارسته بين المتعلمين أنفسهم[٧٨].

ولعل هذا يفسر ما جاء بالوثيقة الأمريكية الشهيرة America 2000, An Education Strategy من إلحاح واضح على ضرورة تحول الأمة الأمريكية إلى مجتمع من المتعلمين المعلمين، بمعنى ألا يكتفى مواطن بما حصله من قبل من تعليم مهما كان المستوى الذى حصله، بل لابد وأن يواصل التعلم، وكذلك فإن التعليم لا يكون مهمة منوطة بمن يمارسون مهنة التدريس فى معاهد التعليم، بل يمكن لكل مواطن متعلم أن يمارسها فى القطاع الذى يعلم لمن لا يعلمه.

فقد جاء فى (المسار الثالث)، من حيث الاستراتيجية، إننا إذا علمنا أن ٨٥٪ من

(٧٧) محيى الدين صابر: الأمية، مشكلات وحلول، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٨٧، ص ٢٦٠.
(٧٨) المرجع السابق، ص ٢٦١.

قوى العمل فى عام ٢٠٠٠ هى حاليا (سنة ١٩٩١) مندرجة فى العمل اليوم، فإنه من الواضح أن تطوير المدارس لطلبة اليوم والغد هو أمر لا يكفى لضمان تحقيق قدرة أمريكا على التنافس سنة ٢٠٠٠، فالأمريكيون - تقول الوثيقة - يحتاجون أن يعرفوا أكثر ليصبحوا آباء وجيرانا ومواطنين وأصدقاء أفضل. فليس القصد من التربية هو مجرد كسب العيش للحياة، ولكن القصد منها هو صناعة الحياة[٧٩].

ولهذا طرح (بوش) - الأب، رئيس الجمهورية الأسبق - المطلب والتحدى التالى:

"عودوا إلى المدرسة "واجعلوا من الأمة الأمريكية" أمة من الطلبة"، ولكى يفهم الأطفال الأمريكيون أهمية تعليمهم يجب على الكبار أن يفهموا أن التعليم هو أمر بالغ الأهمية للكبار كذلك "وعلينا أن نعود للمدرسة".

وقد استحث رئيس الجمهورية الأسبق كل أمريكى وأمريكية أن يواصلوا تعليمهم طوال حياتهم مستخدمين فى ذلك كل الوسائل العديدة غير النظامية المتاحة للحصول على المعرفة واكتساب المهارات الجديدة.

وحتى لا يقف هذا المطلب عند حد "التمنى" فقد حددت له مستلزمات متعددة لابد أن ترافقه، مثال ذلك:

- وضع معايير، رفيعة المستوى لأداء الطلاب، والفصول والمدارس، وإعطاء شهادات لطلبة المدارس الثانوية الذين يجتازون بتفوق اختبارات التحصيل الأمريكية.
- تستحق المدارس التى تحقق تقدما ملحوظا نحو الأهداف التعليمية الوطنية أن تكافأ على ذلك، ويطلب من الكونجرس أن يستصدر برنامجا جديدا يوفر ميزانية اتحادية، يمكن أن تستخدم كمكافآت على هذا التقدم.

---

(٧٩) مكتب التربية العربى لدول الخليج، آليات التخطيط الشامل للإصلاح التعليمى، وثيقة تعليمية من الولايات المتحدة الأمريكية، ترجمة بدر الديب، الرياض، ١٩٩٢، ص ٤٧.

- يتم تشجيع نظام للأجور المتمايزة لمن يتميزون فى التدريس، ولمن يدرسون المواد الأساسية، ولمن يقومون بالتدريس فى بيئات خطرة أو تمثل تحديات خاصة أو لأولئك الذين يعملون كموجهين ومرشدين للمدرسين الجدد.
- يطلب من الكونجرس الموافقة على إتاحة منح للولايات والمناطق التعليمية لوضع وتطوير نظم بديلة لتأهيل المدرسين والمديرين للمدارس.
- السعى لابتكار نوعيات جديدة من المدارس تكون أفضل مدارس العالم.
- حث المجتمعات المحلية لتصبح مجتمعات يمكن للتعليم فعلا أن يتحقق من داخلها(٨٠).

وما كانت هذه الاستراتيجية الأمريكية الجديدة للتعليم إلا رد فعل طبيعى لخطوة سابقة شعر فيها الأمريكيون بأنهم "أمة فى خطر" نتيجة عدد من صور الخلل فى التعليم الأمريكى، ومن هنا فإن مواجهة "الأزمة" و"الخلل" خطوة مهمة لابد أن تسبق التفكير فيما يجب عمله مستقبلا.

وعلى هذا كان لنا أن نحاول الكشف عن بعض مظاهر الأزمة فى التعليم العربى، مما يشير - فى خطوة أخرى - إلى مساهمات يمكن أن تقوم بها أجهزة أخرى - وهى وسائل الإعلام بالنسبة لنا - نظرا لثقل العبء الملقى على نظام التعليم القائم.

إن قدرة الموارد التعليمية والإعلامية - من ناحية - فى جملة البلدان العربية، وضمان المشكلات والاحتياجات التربوية لهذه البلدان - من ناحية ثانية - وتزايد إلحاح ضرورة الأمن الثقافى، من ناحية ثالثة، تفرض على نظم التعليم والإعلام تعبئة طاقاتها فى إطار من "العمل المشترك المنظم" الذى يمكن أن يحكمه دستور ويوجهه تنظيم كفؤ ديمقراطى واحد على المستوى المركزى من أجل سد تلك الحاجات وتحقيق هذا الأمن فى أقصر مدة ممكنة(٨١).

---

(٨٠) المرجع السابق، صفحات متفرقة.

(٨١) محمد أحمد الغنام، ص ٧٥.

ومع التسليم بأن نظم الإعلام لها وظائف أخرى غير وظيفتها التربوية أو التعليمية إلا أنها تلتقى جميعا - أو هكذا يجب - مع نظم التعليم على توفير المعلومات وتكوين الشخصية. وفى كل الأحوال فإن ظروف المنطقة العربية التربوية والثقافية والاقتصادية تفرض على نظم الإعلام أن تضاعف مسؤولياتها وجهودها التربوية فى هذه المرحلة لتعوض قصور التعليم - فى نمطه النظامى التقليدى - عن صنع مجتمع متعلم عربى من خلال العقود القادمة، ولتعين هذا التعليم على تطوير نفسه وإثراء عمله.

ولكى تتضح لنا تفاصيل صورة التعاون المرجو بين نظم التعليم والإعلام فى الدول العربية، نشير فيما يلى إلى عدد من مؤشرات النقص فى الخدمة التعليمية:

- طالعتنا إحصاءات الأمية فى الوطن العربى (١٥ سنة فأكثر) أن هناك انخفاضا فى نسبة الأمية لدى الكبار فيما بين عامى ١٩٧٠، ١٩٩٠ حيث نقصت من حوالى ٧٣٪ إلى ٥١٪، أى بنسبة تحسن تبلغ ٢٢٪ [٨٢]. ومع هذا التناقص فى نسبة الأمية حيث قُدّر أن تصل إلى حوالى ٤٠٪ سنة ٢٠٠٠ على التوالى، إلا أن الأرقام المطلقة تتزايد باستمرار فقد قفز عدد الأميين والأميات من ٤٩ مليونا سنة ١٩٧٠ إلى ٦٤ مليونا سنة ١٩٩٠، ويلاحظ أن أعداد الأميات يفوق أعداد الأميين دائما ، فقد قفز عدد الأميات من ٢٩ مليونا إلى ٤٠ مليونا، وقُدّر أن يصل إلى ٤٢ مليونا فى سنوات ١٩٧٠، ١٩٩٠، ٢٠٠٠ على التوالى. وتسجل الإحصاءات أن نسب الأمية عند الإناث أعلى بكثير منها عند الذكور، حيث وصل متوسط هذا الفرق حوالى ٢٧٪ خلال الفترة من ١٩٧٠، ١٩٩٠، بينما ارتفع العدد المطلق للأميين من الذكور خلال تلك الفترة بنسبة ١٨٪، وزاد عدد الأميات من الإناث بنسبة ٣٨٪[٨٣].

ولعل المصدر الأول لتغذية جيش الأميين هو عدم استيعاب المدارس فى مرحلة

---

(٨٢) مكتب اليونسكو الإقليمى للتربية فى البلاد العربية، مجلة التربية الجديدة، العدد ٤٥ السنة الخامسة عشر (سبتمبر/ ديسمبر ١٩٨٨، جدول ١٧).

(٨٣) حامد عمار، التنمية البشرية، ص ١٤١.

التعليم الأولى للأطفال الذين ينطبق عليهم قانون الإلزام فى الفئة العمرية من (٦-١١)، إذ تظهر الإحصاءات [٨٤] أن الأعداد التى سوف تنضم إلى صفوف الأميين مع سنة ٢٠٠٠ تبلغ حوالى ٨ مليون طفل فى الفئة العمرية من ٦-١١، ومع التناقص المحدود بين أعداد ١٩٨٥ والذي تم توقعه سنة ٢٠٠٠، إلا أن هذا حجم كبير من الأطفال. وفئة العمر التالية (١٢-١٧) - لها أهميتها من حيث إن الذين لا يلتحقون بها قد يتعرضون للارتداد للأمية، أو أن مستواهم التعليمى لن يساعدهم على التوظيف الفعال لمهارات القراءة والكتابة والحساب. ومن المتوقع ألا يحدث تغيير يذكر فى الأعداد أو النسب خارج المدرسة إذا ظلت معدلات الالتحاق كما هى، وإذا لم تتخذ السياسات التربوية أساليب جديدة لاستيعاب كافة الأطفال الملزمين - وسيظل الأطفال والشباب خارج المدرسة مصدرا مستمرا لتخريج الأميين والأميات فى الوطن العربى[٨٥].

- وغنى عن البيان النظر إلى خطورة فترة الطفولة التى تسبق سن الالتحاق بالمدرسة حيث أن هذه الفترة تكون ذات أثر بالغ - سلبا أو إيجابا - على تنشئة الشخصية فى المراحل التالية، ومع ذلك فإن دراسة للجهد المبذول فى تكوين الأطفال فى مؤسسات الحضانة ورياض الأطفال لا تبشر بالخير سواء من حيث المكان أو تجهيزاته أو المربيات العاملات فيه أو محتوى وأساليب التربية المقدمة.

ومن الناحية الكمية، فإن إحصاءات سنة ١٩٨٥ أشارت إلى أن نسبة الأطفال الملتحقين بدور الحضانة ورياض الأطفال لم تتجاوز ٢,٥٪ من مجموع الأطفال فى الفئة العمرية من ٣-٥ سنوات فى الوطن العربى، وهى نسبة ضئيلة جدا بكل المعايير[٨٦].

---

(٨٤) مكتب اليونسكو الإقليمى للتربية فى البلاد العربية، مجلة التربية الجديدة، العددان ٤٠/٤١ السنة الرابعة عشر (يناير/ أغسطس ١٩٨٧) جدول ١٦.

(٨٥) التنمية البشرية، ص ١٤٨.

(٨٦) المرجع السابق، ص ١٥١.

- ورغم النمو المتزايد فى استيعاب الأطفال فى فئة العمر المقابلة للمدرسة الابتدائية إلا أن الإحصاءات[٨٧] أشارت إلى أن هناك حوالى ٣٠٪ من الأطفال فى الفئة العمرية خارج المدرسة سنة ١٩٩٠. وإذا كانت عتبة التقدم التى ينبغى اجتيازها هى بلوغ معدل ٩٠٪ من الالتحاق الصافى، فإنه يبدو أن هذا الهدف لم يُتوقع أن تبلغه أكثر من عشر دول عربية مع حلول عام ٢٠٠٠.

أما معدل التسرب فى المستوى التعليمى، فإن مؤشره هو نسبة الذين لا يكملون تعليمهم حتى نهاية المرحلة بالنسبة إلى مجموع الملتحقين من التلاميذ فى الصف الأول فى نفس العام. وباستقراء أحد البيانات الواردة فى بعض المراجع اتضح أن متوسط معدل التسرب خلال الفترة من ١٩٧٥-١٩٨٣ فى الوطن العربى قد بلغ حوالى ٢٢٪، وزاد هذا المعدل إلى ٢٧٪ خلال الفترة من ١٩٨٥-١٩٨٧[٨٨].

- وفى تعليم المرحلة الثانية (الثانوى)، فعلى الرغم من التقدم الملحوظ فى هذا المستوى إلا أن حوالى ٤٩٪ من الشبان فى الفئة العمرية المناظرة لهذا المستوى كانوا سنة ١٩٨٥ خارج المدرسة، وقدر عددهم بحوالى ١٢,٢ مليون شاب، وقُدر أن تكون النسبة حوالى ٢٧٪ أى حوالى ١٤,٨ مليون من الشباب خارج المدرسة مع حلول عام ٢٠٠٠.

ومن المهم ملاحظة، أن نسبة الملتحقين بالتعليم الفنى فى مجمل الملتحقين بالتعليم الثانوى العام حوالى ٩٪ كنسبة وسطية فى الأقطار العربية[٨٩].

وإذا كانت هذه الصورة تعبر عن الجانب الكمى فى معظمها، فإننا نستطيع أن نرصد عددا من الملامح المصورة لبعض الجوانب الكيفية:

- تشكو معظم نظم التعليم العربية من انفصال ناتج التعليم الرسمى عن مطالب سوق العمل، وغياب التنسيق بين التخطيط للتعليم وللقوى العاملة، وبين ما

(٨٧) مجلة التربية الجديدة، العدد (٤٥) من جدول ٥، جدول ٦.
(٨٨) التنمية البشرية، ص ١٥٥.
(٨٩) المرجع السابق، ص ١٥٨.

تتطلبه مشاريع التنمية وأهدافها. نضيف إلى ذلك عدم التوازن بين التخصصات النظرية والعملية خاصة فى بلدان الخليج التى يعزف شبابها الذكور عن الالتحاق بالتخصصات العملية، ويميلون إلى تلك التى تؤهلهم - أو تضعهم - فى المناصب الإشرافية والإدارية ذات الطابع المكتبى(٩٠).

- لا ديمقراطية التعليم. فعلى الرغم من شيوع مجانية التعليم، إلا أن هناك العديد من الممارسات التى تهدر القيم الديمقراطية فى التعليم، مثال ذلك اتساع دائرة الدروس الخصوصية والهوة الواسعة بين أهداف التعليم المعلنة وأهداف التعليم غير المعلنة التى تتبدى فيما أصبح يعرف "بالمنهج الخفى"، وهناك تنوع لأساليب الغش، والتفاوت الحاد بين الخدمة التعليمية فى الريف وبينها فى الحضر، وداخل الحضر نفسه، نجدها تنحاز لصالح المقاطعة التى يسكنها الأثرياء على حساب المناطق الفقيرة.

- ازدواجية التعليم، كما نراها فى ثنائية بين التعليم الدينى والتعليم المدنى، وتعليم بلغات أجنبية وتعليم باللغة العربية، وتعليم للنخبة وتعليم للعامة، وفى دول الخليج تعليم للعرب المقيمين وآخر للعرب الوافدين، وفى بعض البلدان العربية لم يقتصر التعليم العسكرى على معاهده العليا بل امتد لينشىء له تعليما أساسيا وتعليما ثانويا لتترسخ بذلك الازدواجيات القائمة، هذا فضلا عن تعليم مختلف يقدم للجاليات الأجنبية ويلتحق به بعض أبناء البلاد المقيمين أو الوافدين.

- وأساليب التعليم فى معظمها تكاد تعتمد بالدرجة الأولى على التلقين مما يرسخ فى عقول الأبناء صورة التفكير ذى الاتجاه الواحد، الذى عليه أن يتلقى دون أن يناقش وينقد، فضلا عن قيام التعليم على "الطاعة" التى تعد هى النموذج والمثل الأعلى، وتؤخذ المخالفة والمغايرة دائما على أنها "انحراف" و"تمرد" لابد أن يقابل بالعقاب.

---

(٩٠) العرب وعصر المعلومات، ص ٣٨٧.

- والبحث العلمى يكاد يفتقد الفاعلية، سواء داخل الجامعات أو المعاهد العليا وذلك لانفصال كثير من موضوعاته عن المشكلات العملية التى تعانى منها قطاعات الإنتاج والخدمات، وتنحو معظم جامعاتنا إلى التركيز على مهمتها التعليمية، وإغفال مهمتها الثانية، والتى لا تقل أهمية، ونقصد بذلك البحث وإنتاج المعرفة الجديدة، فمعظم أساتذة الجامعات فى الدول العربية يعزفون عن البحث العلمى، إلا لأغراض الترقية. وفى جامعات دول الخليج، ومراكز بحوثها التى مازالت بحوثها تعتمد بدرجات متفاوتة على أعضاء هيئة التدريس والقيادات البحثية الوافدة، يصعب ترسيخ مناهج البحوث واستمرارية المشاريع البحثية، علاوة على ذلك فكثير من مبعوثينا فى الخارج يتخصصون فى مجالات أغلبها ضعيف الصلة بما يهم مجتمعاتهم[٩١].

العلاقة بين الإعلام والتعليم:

"الإعلام" و"التعليم" كلمتان متجانستان متقاربتان، غير أن بين العاملين فى المجالين لونا من التنافر والضيق، وكل منهما يكيل الاتهامات للآخر، بدلا من أن يتجانسا ويتعاونا، فالعاملون بالتعليم يرون فى الإعلام أجهزة تصرف الأطفال عن الدروس والتحصيل، وتفسد قيمهم، وتدمر أحلامهم، بينما يرى العاملون بالإعلام أن رجال التعليم جامدون، يفرضون المعرفة على الطفل حتى يضيق بها، ويربونه بالقسوة والضغط[٩٢].

ولو أن رجال التعليم أدركوا أن أجهزة الإعلام وسائل تعليمية وأجهزة تربوية، عن طريقها يمكن الوصول إلى جماهير الأطفال، داخل المدرسة وخارجها، ومن الممكن الاستعانة بها بشكل واسع على مهامهم الجليلة، ولو أدركوا هذا لمدوا أيديهم إلى الإعلاميين، وبنوا جسورا من الود والتعاون معهم.

---

(٩١) المرجع السابق.

(٩٢) عبد التواب يوسف: الطفل بين التربويين والإعلاميين، فى: ماذا يريد التربويون من الإعلاميين، ج١، ص ٤٠١.

ولو أن رجال الإعلام آمنوا بأن "التعليم" و"التربية" من المهام الموكولة إلى أجهزة الإعلام ضمن رسالتها التى تتضمن فوق ذلك "الإعلام" والتثقيف والتسلية والترفيه، لو آمنوا بذلك، لاستثمروا هذا السلاح الخطير الذين بين أيديهم لتنشئة الأجيال الجديدة على أساليب قويمة(٩٣).

وتختلف طبيعة العلاقة بين الإعلام والتعليم ونوعية مشكلاتها فى الدول المتقدمة عنها فى الدول النامية، بحكم ما بين المجموعتين من اختلاف نظم الإعلام والتعليم وسياقهما الاجتماعى والاقتصادى والثقافى والسياسى، فالدول المتقدمة عامة تنعم بالوفرة النسبية - بل بالفائض أحيانا - فى ثروتها المادية وأنشطتها الاقتصادية، وعلمها وتكنولوجيتها ومعلوماتها، ووسائل إعلامها ونظمها التعليمية، وممارساتها الديمقراطية، وتغيرها وليس ثباتها ورعايتها لأطفالها وأمنها واستقرارها، وضوابطها وقواعد السلوك الاجتماعى فيها، فضلا عن استقلالها الثقافى وعن الوضوح الفكرى - نسبيا - كذلك بشأن رؤيتها الاجتماعية وخطواتها نحو المستقبل.. والقيمة التربوية فى الإعلام راسخة فيها سلفا. ودور الإعلام فى التربية مسلم به قولا وعملا، وتكامل جهود المعلمين فى المدرسة مع جهود الإعلاميين خارج المدرسة من أجل تربية الطفل صار واقعا لا يحتاج إلى جدال. وإذا كان الطفل فى العاشرة من عمره فى أوربا مثلا يقضى أربعا وعشرين ساعة أسبوعيا، فى مشاهدة التلفزيون - كما تشير إلى ذلك إحدى الدراسات - فإن أكثر ما يعرض له برامج تربوية مدروسة ومنسجمة فى معظم الأحوال مع ثقافة مجتمعه واتجاهاته، وجلها من صنع خبراء وفنيين فى التربية أو لهم الإلمام بالتربية. وحتى البرامج (وكذلك الأفلام) التى يتم تصحيحها وتنفيذها لغير الأطفال أغلبها لها ضوابط أسرية ومجتمعية وقانونية أحيانا تجعل التعرض لها من جانب الطفل مشروطا أو محدودا للغاية. وفوق كل هذا، فإن المدرسة قد نجحت فى استيعاب جزء من البرامج التليفزيونية بين جدرانها وفى صلب عملها، كما أنها، أى المدرسة، تتحمل مسئوليتها فى تعليم أطفالها كيف يتعاملون مع وسائل الإعلام،

(٩٣) المرجع السابق، ص ٤٠٢.

وكيف يميزون بين الغث والسمين فيما يقدم لهم وكيف يتحيزون فى معظم الأحوال لما ينفع ويفيد[٩٤].

أما بالنسبة للدول العربية، فالمعروف أن كلا من التعليم والإعلام يتبع وزارة مستقلة عن الأخرى، بحكم ما بين النظامين من اختلاف فى الأهداف والوسائل، وإذا كانت وزارتا التعليم والإعلام تتفقان - فى بعض الأحوال - من حيث التنظيم الوزارى العام ضمن قطاع واحد من قطاعات الخدمات فقد حاولت بعض الدول جمع التعليم والإعلام (والثقافة) فى وزارة واحدة، لكن ذلك لم يدم طويلا، ولم يسلم من انتقاد بعض الإعلاميين الذين اعتبروا هذه الخطوة شدا للإعلام إلى الوراء بدلا من أن تكون فرصة لعصرنة التعليم ورفع الإعلام على طريق التعاون لتكوين مواطن أفضل[٩٥].

وفى كل الأحوال، فإنه يوجد بين التعليم والإعلام فى كل دولة عربية خيوط أو خطوط اتصال وتعاون كثيرة، لا ينتظمها فى معظم الأحوال دستور مكتوب أو لقاءات مشتركة لهذا الغرض بين القائمين عليهما والمشتغلين بهما. ولعل أهم هذه الخيوط وأكثرها بداهة ما يقدمه نظام التعليم لنظام الإعلام من طاقة عاملة متعلمة (فنية وإدارية) تقوم بتوجيهه وتشغيله، ومن جمهور متعلم "يستقبله" ويستفيد منه ويروج له، وربما يعود فيقدم هو له - أى لنظام الإعلام - تغذية راجعة ينمى بها قدرته ويصحح مساره. وعلى هذا الأساس، فإنه بقدر ما يكون نظام التعليم جيدا "كفئا" تكون جودة نظام الإعلام وكفايته "إرسالا" و"استقبالا" و"تغذية راجعة". وإذا حق للتربويين أن يطالبوا الإعلاميين بشىء يسهم فى حسن تربية المواطن وتحرير ثقافة الوطن، فإن عليهم - أى على التربويين - فى الوقت نفسه إن لم يكن قبله أن ينظروا فى "النظام الأب"، وهو التعليم، ويتأكدوا من أنه يقدم للإعلام "العامل الأكفأ" "والمستفيد الأمثل"[٩٦].

---

(٩٣) المرجع السابق، ص ٤٠٢.

(٩٤) المرجع السابق، ص ٦٧.

(٩٥) المرجع السابق، ص ٧٢.

(٩٦) المرجع السابق، ص ٧٣.

ويشير د. فتح الباب وزميله إلى عدد من المؤشرات التى يتأكد لنا خلالها أوجه الشبه والاختلاف بين التعليم والإعلام، فمن ناحية أوجه الشبه، على سبيل المثال[٩٧]:

١- كلاهما تغيير فى السلوك، فهناك اتفاق بين علماء النفس على أن خير تعريف للتعلم أنه تغير فى سلوك المتعلم نتيجة تعرضه لمثير أو لجملة مثيرات، فالتلميذ الذى ينطق كلمة جديدة لم يتعودها من قبل أو التلميذ الذى يستعمل فرشاة الأسنان لتنظيف أسنانه و لم يكن يستعملها من قبل، والتلميذ الذى عرف شيئا عن جهاز التليفزيون فى منزله فأصبح يعالجه وينتفع به بطريقة لم تكن معروفة له من قبل، كل أولئك تعلموا شيئا فسلكوا أنواعا من السلوك غير سلوكهم الأول الذى اعتادوه، غيروا منه وأضافوا إليه، أو عدلوا فيه.

هذا الاتفاق بين أساتذة علم النفس التعليمى على التعليم كتغيير فى السلوك نجده واضحا بين أساتذة علم النفس الاجتماعى وعلم الاجتماع. على أن الإعلام تغيير فى السلوك أيضا، ويكفى أن تشير هنا إلى ما أحدثه راديو صوت العرب على سبيل المثال طوال فترة الستينيات لا من تغيير فى سلوك هذا الفرد أو ذاك، وإنما فى سلوك شعوب كانت مستعمرة فهبت متخلصة من الاستعمار.

٢- وإذا كان كل من التعليم والإعلام يهدف إلى التغيير السلوكى للإنسان، فكلاهما أيضا يشتركان فى الهدف من هذا التغيير، إذ لا قوام للمجتمع الإنسانى إلا بمقدار ما بين أفراده من جسور مشتركة تحتفظ لكل إنسان بتفرده وخصوصيته لكنها تقوم بما يقوم به "الأسمنت" بين المفردات الحجرية فى البناء الواحد. إن هذا نلاحظه بوضوح فى تلك الفروق التى تبدو واسعة بين الكبار والصغار، بين الآباء، والأمهات وبين الأبناء فإذا بالجهود المبذولة بالتعليم تمكن الأبناء من أن يحصلوا الكثير مما سبق أن حصله الآباء والأمهات، وإذا بالجهود المبذولة عبر وسائل الإعلام المختلفة تقرب ما بين الريف والحضر، البدو والحضر، الفقراء والأغنياء، أبناء الطوائف المختلفة

(٩٧) فتح الباب عبد الحليم وزميله، من ص ٢٨ وما بعدها.

وتتهاوى الأسوار التى كانت تعزل هذه المنطقة عن تلك، فإذا بقدر من التلاحم يتزايد نموا، وإذا بقدر من التفاعل يتسارع فى الربط بين الناس فتتماسك أجزاء المجتمع الواحد تماسكا أكثر صلابة مما كان من قبل.

٣- وإذا كان كل من التعليم والإعلام يسهم بذلك فى تكييف الأفراد للحياة الاجتماعية التى هم جزء منها، فيزداد المجتمع ترابطا وتماسكا، فإن ذلك إنما يتأتى نتيجة اشتراك كل من التعليم والإعلام فى سبل التفاهم والاتصال بين الناس، لقد كان الفرد من مجتمع جنوب مصر (الصعيد) عندما تضطره الظروف إلى أن يجىء إلى القاهرة يشعر بأنه قد انتقل إلى كوكب آخر، فلا هو يستطيع أن يفهم الناس الذين يتعامل معهم فى هذه البيئة الجديدة، ولا هم بقادرين على أن يفهموه. والحادث الآن، أن هذه المشكلة خفت حدتها إلى حد كبير، فقد أصبح الإرسال الإذاعى والتليفزيونى يصل إلى المناطق كافة، فأصبح الإنسان منذ الطفولة عليما بما يحدث فى أى مكان آخر ولهجته وعاداته وتقاليده وبالتالى أصبح أكثر قدرة على الفهم والإفهام. كذلك قل الآن من يفلت من حتمية المرور فى قناة التعليم، والمناهج المتجانسة، والامتحانات العامة، موحدة... وهكذا تتكاثر المفاهيم الواحدة فتزداد سبل الفهم والتفاهم بين الجميع.

ومع ذلك فهناك نقاط اختلاف وتباين بين التعليم والإعلام يمكن الإشارة إليها فيما يلى:

١- **التجانس والتباين فى الجمهور**، فطلاب كلية التربية فى المجتمع الواحد، إذا غضضنا النظر عن الفروق الفردية الطبيعية المعروفة، نجدهم متجانسين فى العديد من المفاهيم والأفكار وأساليب التفاؤل، والشىء نفسه يمكن قوله على طلاب كليات الحقوق، وغير هذا أو ذاك من التخصصات العلمية الجامعية.

وأكثر من هذا يمكن قوله بالنسبة لطلاب وطالبات الثانوية العامة فى بلد بعينه، وطلاب المتوسط، وطلاب الابتدائى.

فجمهور المؤسسة التعليمية إذن جمهور متجانس

لكن هذا لا يتوافر بالنسبة لجمهور الإعلام، فهناك القرويون والبدو، وهناك الأطفال والكبار، وهناك المتعلمون والأميون، وداخل فئة المتعلمين، هناك المستويات التعليمية المختلفة.

وفضلا عن ذلك فهناك التباينات الاجتماعية والطائفية والدينية والاقتصادية.

٢- **التقييد والإطلاق**: فعلى الرغم من التحول الكبير فى نظم التعليم من حيث الاتجاه إلى منح الطلاب مزيدا من الحرية فى اختيار المواد التى يدرسونها وخاصة فى ذلك النظام الشهير باسم نظام الساعات المعتمدة، إلا أن هناك قدرا معينا لابد للطلاب أن يلتزموا بدراسته فى كل مرحلة، وعند كل تخصص، فطلاب الابتدائى، لابد أن يدرسوا اللغة القومية وقواعد الحساب، مثلا، وطلاب التاريخ فى كلية الآداب لابد أن يدرسوا التاريخ الإسلامى (فى الدول العربية)، وطلاب الطب لابد أن يدرسوا كذا وكذا مما يشكل "أساسيات التعليم الطبى".

وما هكذا جمهور الإعلام! فليقدم أصحابه الموسيقى الكلاسيكى والأوبرات العالمية وأشهر الباليهات اعتمادا على أن ذلك من شأنه أن يرفع مستوى التذوق الفنى العام، فهل هناك ما يلزم المشاهدين أو السامعين بذلك؟ إنهم يمكن أن يغلقوا الجهاز ويبحثوا عن هذا وذاك من مطربى الملاهى الليلية وراقصى الكابريهات؟!.

كذلك بالنسبة للوقت، صحيح أن لكل من الإذاعة والتليفزيون برامج محددة بفترات زمنية، مثلما المدارس والجامعات، محددة، بجداول دراسية، لكن جمهور الإعلام غير ملزم بالاستماع أو القراءة أو المشاهدة فى زمن بعينه، لكن التلاميذ والطلاب ملزمون بالحصة أو المحاضرة المقرر إعطاؤها يوم كذا الساعة كذا ومن س أو ص من المعلمين أو الأساتذة، وحتى بالنسبة لنظام الساعات فالحرية محدودة إلى حد كبير!

٣- **المحاسبة على النتائج**: فكل طالب فى موقع معين تحاسبه المدرسة أو الكلية على

مقدار ما تعلم عن طريق الاختبارات، ولا يستطيع أن ينتقل من صف إلى آخر ولا من فرقة إلى أخرى ولا من مرحلة إلى أخرى إلا إذا استطاع أن يجتاز هذه الاختبارات بنجاح، وربما بمعدلات مرتفعة فى بعض الأحوال.

لكن أحدا ممن يقرأ صحيفة أو يستمع إلى راديو أو يشاهد تليفزيونا لا يجد نفسه مسئولا عما قرأ أو سمع أو شاهد لأن أحدا لن يجيء إليه ويحاسبه عن تلك، بل ربما تنعكس جهة المحاسبة هنا...

فجمهور الإعلام هو الذى يحاسب إنتاجه ومنتجيه، فإذا قدمت هذه الصحيفة أو المجلة مادة تشبع احتياجات القراء، أقبلوا عليها وارتفع توزيعها وزادت مكانتها وارتفعت أرباحها، وإذا حدث العكس، انصرف عنها القراء، مما يؤدى إلى الإفلاس والاختفاء!

وبالنسبة للإذاعة والتليفزيون، هناك دراسات تجرى لاستطلاع آراء المستمعين والمشاهدين، وهناك رسائلهم، وهذا وذاك يبين مقدار نجاح أو فشل البرنامج أو المذيع، وكلما زادت درجة الإقبال، تكاثرت الإعلانات وارتفعت المكاسب وتزايدت طلبات الإذاعات والقنوات الأخرى للبرنامج الناجح لشرائه وإذاعته!

٤- **الدافعية**: فهناك بطبيعة الحال برامج إذاعية وتليفزيونية تقدم مادة علمية وثقافية وفكرية ولكن الجمهور هنا لا يتجه إلى الإعلام بقصد الحصول على هذا، وإنما - فى غالب الأحوال - ليروح عن نفسه بعد فترة من العمل.. إنه يقبل على وسائل الإعلام فى وقت الراحة مما يجعله باحثا أكثر عما يسليه ويرفه عنه، وإذا رأى أمامه هذا وذاك مما يتطلب جهدا فكريا إما أن يؤجل النظر فيه، إذا كان فى صحيفة، أو قد يستسلم بشيء من الفتور إذا كان مذاعا.

أما جمهور المدارس والجامعات، فدافعه واضح ومعروف، إنه يأتى لتحصيل المعرفة، واكتساب مهارات بعينها، وهو لابد أن يجهد نفسه ويعمل عقله... إنه يريد أن يحصل

كذلك على (وثيقة)... شهادة يبين بها لنفسه وللناس وللدولة أنه قد أصبح صاحب مستوى، بعينه يؤهله لأن يصير كذا وكذا!

وبالنسبة لجمهور الإعلام، فماذا يهدف من مشاهدته أو قراءته لهذا أو ذاك؟ إنها المتعة الخاصة.. حتى ولو كانت عقلية!

٥- **الصلة بين المرسل والمرسل إليه**. وأول ما يلفت نظرنا هنا هو "المباشرة" بالنسبة للعلاقة بين المعلم والطلاب، والمواجهة... إن المعلم وهو يشرح ليس جهازا "يُسمع" ما يعرف، ولكنه وهو يتحدث يقرأ وجوه طلابه فيستمد منهم "تغذية راجعة" قد تزيد حماسه فى الشرح، وقد توحى له بأن كلامه غير مفهوم يحتاج إلى إعادة، كما قد توحى له بأن الطلاب بحاجة إلى مزيد من الأمثلة. وهو فى التو واللحظة يوجه الأسئلة ليعرف مردود ما قال.

لكن المذيع لا يستطيع ذلك، ولا الصحفى... إلا بعد فترة، عن طريق البريد، علما بأن الاطلاع على البريد عسير للغاية لأنه قد يصل إلى الآلاف، فيضطرون إلى الاكتفاء بعينة لا تزيد عن بضع عشرات.

صحيح أن الاستفتاءات أو استمارات استطلاع الرأى يمكن أن تكشف عن ردود الفعل، ولكنها كلمات على ورق، تفتقد الانفعالات والأحاسيس الإنسانية التى تتبدى فيما يراه ويلمسه المعلم من طلابه وجها لوجه.

القيمة التربوية للإعلام:

ربما لا نكون مبالغين فى كثير أو قليل إذا قلنا أن هذه القضية تعد بالنسبة لكاتب هذه السطور "مربط الفرس" بحكم التخصص العلمى والممارسة العملية. بل إن الكثيرين من الآباء والأمهات ربما يشاركوننا فى ذلك، وكثير من صور النقد الموجهة للإعلام إنما تكون - غالبا - من هذا الباب... من حيث ما يذهب إليه البعض من آثار سلبية فى تربية الأبناء.

وعلى الرغم من اشتمال مفهوم الإعلام للصحافة والإذاعة والتليفزيون، إلا أن

معظم ما يقال عن (الإمكانات التربوية)، والآثار التربوية، يكاد يتركز على التليفزيون بصفة خاصة.

وفيما يلى سنحاول أن نلتقط بعض المظاهر أو القضايا التى يمكن من خلالها أن نعرض للقيمة التربوية للإعلام.

١- **بالنسبة للأطفال**: ليس فى استطاعة الإنسان، مهما بلغ اطلاعه أن يصدر ببساطة حكما قاطعا فيما يتعلق بالبرامج التليفزيونية، فيقول إنها ضارة أو صالحة للأطفال، فهناك من البرامج ما يكون له أثر ضار على بعض الأطفال فى بعض الظروف، ولكن بالنسبة لأطفال آخرين، وفى نفس الظروف السابقة أو بالنسبة لنفس الأطفال فى ظروف مختلفة قد تكون هذه البرامج نفسها ذات أثر طيب.

ومما لا ريب فيه أن الجانب الأكبر من برامج التليفزيون فىأكثر الظروف أو بالنسبة للغالبية العظمى من الأطفال لا يترتب عليه ضرر أو فائدة. وقد يستشف القارئ من هذه التعابير حرصا لا داعى له أو يرى فيها معنى غامضا لا يكاد يبين، أو لعله يعتبرها اصطلاحات علمية ملتوية يقصد بها الدلالة على حقيقة بديهية، ولكن الموضوع الذى نتعرض له هنا ليس من السهولة بمكان، بل ليته كان كذلك، بمعنى أن يكون فى استطاعتنا القول بأن برامج التليفزيون لها ذلك الأثر أو ذاك على الأطفال، وإذن فهذا اللون من البرامج ضار، وذلك اللون الآخر مفيد، إن المسألة للأسف ليست كذلك، والوصول بالنتائج لا يكون بهذه السهولة(٩٨).

وعندما قام (شيكرام) وزملاؤه بدراسة واقعية على أثر التليفزيون على الأطفال وجدوا أن هذا الجهاز يحدث تعديلا فى قضاء أوقات فراغ الطفل وكيفية استعماله للوسائل الجماهيرية الأخرى بشكل يدعو إلى الاهتمام، فقد اقتطع التليفزيون مدة طويلة من الوقت المخصص للذهاب إلى السينما والاستماع للراديو وقراءة الكتب

(٩٨) ويلبورم شيكرام وآخرون: التليفزيون وأثره فى حياة أطفالنا، ترجمة زكريا سيد حسن، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ت، ص٧.

والمجلات المصورة، كما أنه قلل من الزمن المخصص للعب وأحدث تأخيرا فى موعد نوم الطفل، وأصبح يتحكم فى وقت فراغه[٩٩].

ويكن الأطفال عاطفة شديدة نحو التليفزيون، فهو الوسيلة الجماهيرية التى تحس جمهرتهم بوحشة إذا افتقدوها واضطروا لقضاء بعض الوقت بعيدا عنها. ومما تجدر ملاحظته أن الاعتبار الكبير والأهمية التى تكون للتليفزيون فى نفس الطفل تهبط أثناء سنوات المراهقة وخاصة عند الطلاب النبهاء حيث يزيد اهتمامهم فى تلك الفترة بالوسائل المطبوعة وبالراديو الذى يستعملونه كصوت مؤنس أثناء القراءة أو المذاكرة ويكون له أهمية خاصة.

إن الجانب الأكبر من التعلم الذى يحققه الطفل من التليفزيون هو شىء يكتسبه اتفاقا وعن غير قصد ضمن البرامج الخيالية. ويعتبر هذا مصدرا مهما للمعرفة والتعليم فى السنوات التى تسبق ذهاب الطفل إلى المدرسة لأنه يعطى الطفل، الذكى والبطئ الفهم على السواء، حصيلة من مقررات اللغة تعدل ما يحصله نظراؤه الذين لم يعاصروا التليفزيون خلال سنة تعليمية، وبالمثل فإن الأطفال الذين يشاهدون التليفزيون مدة طويلة يذهبون إلى المدرسة بحصيلة من الكلمات أكبر من نظرائهم الذين يشاهدون التليفزيون قليلا.

وفيما بعد، يصبح التعلم العرضى من البرامج الخيالية ذا فائدة قليلة للطفل بسبب كثرة التكرار وانخفاض المستوى الفكرى للبرامج الخيالية، وكذلك المعارف الجديدة. ولعل هذا مشاهد على الأخص فى حالة الأطفال مرتفعى القدرة العقلية. وإذا كان المراهقون يشاهدون التليفزيون طويلا، فإنهم يكونون متخلفين فى اختبارات المعلومات العامة، وفى الاختبارات المدرسية عن نظرائهم الذين يشاهدون التليفزيون لمدة قصيرة[١٠٠].

وإن نوع الصلات الاجتماعية بالأسرة والأصدقاء، هو الذى يحدد مدة مشاهدة

---

(٩٩) المرجع السابق، ص ٢٨٤.

(١٠٠) المرجع السابق، ص ٢٨٧.

الطفل للتليفزيون، كما أن هذه الصلات قد توضح اتجاهات أخرى فى السلوك، فالطفل الذى يشاهد التليفزيون، وفى نفسه ميل للاعتداء بسبب سوء العلاقات مع الأسرة أو الأصدقاء، هذا الطفل، يحتمل أن يبحث عن البرامج التليفزيونية التى بها أعمال عنيفة وعدائية، ويميل إلى تذكر مثل هذه البرامج، وإذا كانت علاقاته الاجتماعية غير كافية لإشباع حاجاته فمن المحتمل أنه يستغرق فى أحلام اليقظة مع البرامج الخيالية التى يراها فى التليفزيون، فإذا بحث الطفل عن مشاهد عنيفة استجابة لما فى نفسه من الحاجات الاجتماعية، فإنه يتذكر هذه الأعمال وقد يقوم بمثلها فى الحياة إذا دعاه الأمر إلى القيام بعمل عدائى.

يفهم من هذا أن فى استطاعة الآباء والأمهات والأصدقاء والمعلمين فى المدرسة أن يكون لهم دور كبير فى أن يجعلوا مشاهدة الطفل للتليفزيون تحقق له أكبر فائدة وذلك بأن يهيئوا له جوا من الحب والاستقرار بالمنزل وأن يساعدوه على إنشاء علاقات صداقة طيبة مع رفقائه فى السن[١٠١].

وفى دراسة أمريكية تجريبية لأثر التليفزيون على النشء بمقارنة مجموعة أطفال يشاهدون التليفزيون بأخرى لا تشاهده، وجد الكثير من الأمثلة التى تختلف فيها النظرة العامة للأطفال من مجموعة المشاهدين عن نظرائهم من المجموعة الضابطة اختلافات لم تكن قائمة قبل أن يظهر التليفزيون إلى حيز الوجود، فقد كان للتليفزيون تأثير طفيف، ولكنه تأثير دائم، حول كيفية تفكير الأطفال فى الوظائف، والقيم الوظيفية والنجاح، والبيئة الاجتماعية. لقد أثبت الأطفال الذين يشاهدون التليفزيون أنهم أكثر طموحا فى آمالهم الوظيفية، من أولئك الذين لم يتعرضوا لتأثير التليفزيون، وأنهم كانوا أكثر تطلعا إلى الطبقة المتوسطة بالنسبة لقيمهم الوظيفية، وأن تركيزهم كان على الحاجة إلى الثقة بالنفس عند تقييمهم لعوامل النجاح الشخصى، وكان وصف البعض منهم لمنازل الأغنياء يعكس كل ملامح الثروة التى يصورها التليفزيون[١٠٢].

(١٠١) المرجع السابق، ص ٢٩٠.

(١٠٢) هيلد. ت هيمولويت وآخرون: التليفزيون والطفل، ترجمة أحمد سعيد عبد الحليم ومحمود شكرى العدوى، القاهرة، مؤسسة سجل العرب، ١٩٦٧١، ج١، ص٥٣.

وبالنسبة لأثر التليفزيون على العمل المدرسى للأطفال وجد باحثو الدراسة الأمريكية أن المشاهدين بشكل عام حافظوا على مستواهم الدراسى بالنسبة لأقرانهم المشاركين لهم فى نفس السن والجنس والمستوى الاجتماعى والذكاء. ولكن مال الأطفال الذين هم أكثر ذكاء فى كلتا مجموعتى السن إلى قليل من الإهمال.

ولم يخلق التليفزيون ميلا خاصا إلى مادة دراسية معينة، و لم يكن مشاهدو التليفزيون أفضل أو أسوأ من أقرانهم فى أى من هذه المواد[١٠٣].

وأنفق الأطفال من مجموعتى المشاهدين والضابطة نفس القدر من الوقت على الواجبات المنزلية، ولكن فترة توقف الإرسال قد تؤدى إلى التباين فى هذا الصدد، ولذا يلزم إجراء استقصاء ثان فى ظل هذه الظروف الجديدة.

وبالنسبة لتساؤل عما إذا كان التليفزيون يؤدى إلى فتور همة الأطفال، وعما إذا كان يقودهم إلى التركيز الهزيل فى المدرسة ويقلل ميلهم إليها، أشارت نتائج هذه الدراسة إلى أن ذلك لم يحدث. فلم يتبين من التقييم الشخصى للأطفال وجود خلاف بين المشاهدين وغير المشاهدين من المجموعة الضابطة من حيث معاناتهم من الإرهاق فى الصباح ولا من حيث تقدير معلمى الفصل لمدى تركيز كل منهم.

٢- **بث وتنمية القيم**: فالقيم هى معايير التفضيل التى يستهدى بها أفراد المجتمع فى الاختيار بين الأفعال والمفاهيم من خلال عمليات التفاعل الاجتماعى.

والقيم متعددة، فمنها القيم الدينية، والقيم الجمالية، والقيم الاقتصادية، والقيم الاجتماعية، والقيم السياسية، والقيم الفلسفية، وإن كانت هناك تصنيفات أخرى ليس هنا مجال للحديث عنها.

ولما كان تناول مختلف أنواع القيم من حيث دور الإعلام فى بثها وتنميتها أمرا قد يكون عسيرا فى حدود دراستنا الحالية، فسوف نقتصر على الإشارة إلى القيم الدينية

(١٠٣) المرجع السابق، ص ٥٩.

حيث إنها تتناول أكثر معايير التفضيل شيوعا ورسوخا وأهمية بين أبناء الأمة العربية والإسلامية.

وقد دأبت كثير من وسائل الإعلام العربية فى هذا المجال أن يجىء البرنامج الدينى فى صورة أحاديث أو لقاءات مع بعض علماء الدين ولا تستخدم "الدراما" إلا نادرا عندما يحل شهر رمضان حيث تزيد كثافة المادة الإعلامية الدينية وكأن للدين "موسما" أما بقية شهور السنة، فللإنسان أن يتحرر من قيده ورقابته.

والأحاديث واللقاءات مهما كانت فائدتها إلا أنها تفتقد الجاذبية وعناصر التشويق التى تتمتع بها أشكال الدراما.

ومع الأسف، فإنه حتى عندما يستعان بالشكل الدرامى، فإنه يجىء فى صورة تاريخية فقط، وإن قصر وحصر القيم والأهداف الإسلامية فى الصور التاريخية، وإن كانت له إيجابياته المتمثلة فى تعريف المسلمين بأمجاد أسلافهم، إلا أن له سلبيات خطيرة إذ يرسخ هذا فى نفوسهم معنى خطيرا، وهو أن الإسلام كان لزمن مضى وليس صالحا لهذا العصر. وهذا أخطر انحراف فكرى حاربنا به المستعمرون وأعداء الإسلام.

أما إذا جئنا إلى المسلسلات والأفلام التى تتناول موضوعات عصرية، فإننا نرى العديد من السلوكيات التى لا تتشبع بالقيم العربية والإسلامية، فالممثل الذى يواجه أزمة أو مشكلة لا يفكر أحد فى أن يجعله يلجأ إلى الصلاة أو قراءة القرآن، وإنما هو يهرع إلى ملهى ليلى ليشرب الخمر، أو يدمن السموم البيضاء، وأخف الوسائل أن يزداد نهما فى التدخين.

وقلما نرى من بين أبطال الأفلام والمسلسلات عالم دين يكون له دور مصلح اجتماعى وتنوير فكرى، وإنما هو عادة فى مظهر فرد أكول، جشع يتطلع إلى المال واستغلال المصالح الخاصة!

---

(١٠٤) المرجع السابق، ص ٦٠.

(١٠٥) فاروق أحمد الدسوقى: مدى تأثير القيم العربية والإسلامية على برامج الأطفال فى دول الخليج العربى فى: ماذا يريد التربويون، ج١، ص٣٣٩.

إن رحلتنا مع الإيمان منذ الطفولة تجعلنا ننادى بضرورة تقديم مفهوم الألوهية للأطفال علىأنه حب، ورحمة، وإحسان، ونور، يجب أن نبعد ما بين الأبناء وما بين الصورة التى تلح على أن الله فقط مصدر تخويف وترهيب جل شأنه. إن كل كبير - كالأب والأم - يمثل بالنسبة للأطفال سلطة إرهاب ويتسبب فى احتياطات لا نهاية لها، ومن هنا فإن التناول لمفهوم الألوهية يجب أن يكون بفهم وعقيدة وحب وود، والإجابات عن الأسئلة تكون فى حدود ولا تفتح الأبواب لألف سؤال جديد. ولعل حديثاً واحداً يقربهم لمفاهيم الدين والإيمان، ويفتح مغاليق القلوب أفيد بمراحل من دراسات معقدة لا تترك فى ذهن متلقيها شيئاً، ولا ترسب فى نفسه ذرة من إيمان، وفى شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام والصحابة ما يشد الصغار، وما يبهر الكبار، ويالينا نقدم لهم هذه الشخصيات الرائعة فى ثوب يجعلهم يجرون وراء معرفتها معرفة حقيقية، وكذلك حياة الخلفاء الراشدين والحروب الإسلامية والبطولات، بشرط أن يرتبط كل ذلك بالواقع المعاصر، فلا يبقى فى إطار التاريخ، وفى إطار (ليس فى الإمكان أبدع مما كان)[١٠٦].

وقد قام أحد الباحثين بتحليل محتوى بعض المسلسلات العربية، فوجد بعضاً من القيم الإيجابية التى تدعو إليها المسلسلات موضوع التحليل مثل[١٠٧]:

- الدعوة إلى إصلاح ذات البين.
- الرجوع إلى الحق بعد ظهوره.
- التكافل والتعاون بين أفراد الأسرة والمجتمع.
- مقابلة الإساءة بالإحسان.
- البعد عن مواطن الريبة.
- الكسب من عمل اليد.

---

(١٠٦) المرجع السابق، ص ٣٨١.

(١٠٧) مساعد بن عبد الله المحيا: القيم فى المسلسلات التلفازية، الرياض، دار العاصمة، ١٩٩٣، ص ١٩٧.

- استثمار وقت الفراغ بما يفيد.

ولكن فى مقابل ذلك، فقد وجد الباحث نفسه عدداً مغايراً من السلبيات التى تتبعها المسلسلات نفسها، من ذلك[١٠٨]:

- تقديم كلمة (سعيدة) عند التحية والترحيب على جملة (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته).
- الوشاية بين الناس لتحقيق مآرب شخصية.
- التعدى على المال العام والتحايل فى سبيل السرقة منه.
- التجسس على الغير.
- بيان عدة أساليب للنصب والسرقة والاحتيال.
- تأكيد قيمة الكذب على أنها هى وسيلة مثلى لتحقيق النجاح والمآرب الشخصية.

٣ - **اللغة العربية**: ففى الصحافة العربية نجد صفحات مشرقة من خدمة اللغة، فمعظم ألفاظ الحضارة التى تجرى على الألسن، وعلى الأقلام فى الوقت الحاضر لم تستحدثها المجامع اللغوية، ولا الأوساط التى نسميها علمية أو أكاديمية، وإنما ترجع معظمها إلى اجتهادات الصحفيين، وليس الأمر قاصراً على الألفاظ وحدها، ولكن أيضاً على تيسير الأساليب التى تجعل هذه الأساليب مماشية لسلطة الفكر فى العصر الذى تمارس فيه الصحافة[١٠٩]. فعندنا إذن فى هذه الناحية شقان: اللفظ المفرد والأسلوب.

من ناحية اللفظ المفرد، نجد - كما أشرنا - أن مصطلحات الحضارة الحديثة فى السياسة وفى التكنولوجيا وفى العلوم وفى الفنون وفى الأخلاق وفى المجتمع، كانت من مستحدثات صحفيين من أمثال: الشيخ إبراهيم اليازجى والأستاذ وحيد الأيوبى وعباس محمود العقاد وطه حسين وأحمد أمين وأحمد لطفى السيد والشيخ حمد الجاسر

---

(١٠٨) المرجع السابق، ص ١٩٩.

(١٠٩) حسن محمد توفيق ظاظا: وسائل الإعلام واللغة فى: ماذا يريد التربويون، ج٣، ص ٩٧.

وميخائيل نعيمة وجرجى زيدان.. كل هؤلاء أسهموا فى إنماء الثروة اللغوية وفى امداد المعجم العربى المعاصر بالألفاظ اللازمة للفكر، والتى جعلت اللغة العربية بعد جيلين من هذا الجهد صالحة لممارسة التعليم العالى بها، بعد أن كان هذا التعليم قد بدأ بلغات أجنبية فى معظم الأحيان.

أما من حيث الشق الثانى، وهو الإسلوب، فالصحافة كانت من أنجح الوسائل لتحرير الأسلوب من صور "التعقيد" التى كان يلجأ إليها بعض الكتاب المحدثين تقليداً للقدماء، وبذلك أدت الصحافة إلى ما يمكن تسميته بديمقراطية اللغة، حيث جعلتها متاحة الفهم لمستويات متعددة، بعد أن كانت قاصرة - غالبا - على خاصة المتعلمين(١١٠).

لكن الجهد العظيم الذى قام به الإعلام من ناحية تصفية اللغة وأعطائها المرونة للتعبير عن شئون الحياة، والذى بدأ فى الصحافة المقروءة، قد ظهر عكسه فى الإعلام المسموع والمشاهد خاصة فى السنوات الأخيرة من حيث شيوع اللحن وتغليب التحدث بالعامية!

٤ - **التنمية الاجتماعية**: وفى هذا الشأن لابد أن نؤكد على أن وسائل الإعلام يستحيل أن تنهض بعبء التنمية الاجتماعية وحدها، ذلك أن هذه المهمة لها العديد من الجوانب التى تقتضى مساهمة قوى ومؤسسات أخرى مختلفة، فضلاً عن أن من المهم التنبه إلى أن وسائل الإعلام هنا إن هى إلا "أدوات" بقدر تكاملها مع غيرها، وبقدر فاعلية وجودة استخدامها، بقدر ما تعين وتسهم فى التنمية الاجتماعية(١١١).

ويذكر شرام SHRAMM عددا من الوظائف الأساسية للاتصال والتى يمكن اعتبارها إسهاما إيجابيا للمجتمع، فهو يقول إن الاتصال يخلق شعوراً بالانتماء

---

(١١٠) المرجع السابق، ص ٩٨.

(١١١) W. Schramm: "Mass Communication" in George Miller, (ed) Psychology and Communication, Princeton, New Jersey Voice of America from series, 1974, pp. 247-258

إلى الوطن، وهذا الشعور كفيل بتحويل الاهتمام من المجال المحلى إلى الشئون والاهتمامات القومية. ومن مهام الاتصال نشر وتوضيح التخطيط القومى وتعليم المهارات اللازمة التى تساعد على إدخال طرق جديدة للمعيشة، كما يجب استخدام الاتصال لنشر عملية محو الأمية والتخصص الفنى. وبهذا يقوم الاتصال بإعداد الناس للقيام بدورهم الجديد، ويحفزهم على أن يبذلوا مجهودات أكبر وأن يقدموا مزيداً من التضحيات[١١٢].

ويضيف (شرام) أنه فى مقدورنا أن نرى أن طبيعة التفاعل بين وسائل الإعلام والمجتمع تظهر على شكل مصغر فى بعض الدول الناشئة التى انتقلت من ثقافة شفوية إلى ثقافة إعلامية، وفى هذه البلاد، أمكن ضغط خمسمائة عام من عمر تنمية الاتصال إلى ما يقرب من عشر تلك الفترة، وذلك بفضل أدوات الاتصال المتاحة، وفى كثير من الحالات، يتغير سير النمو بحيث لا يتبع النمط التاريخى فى الطباعة، وفى الصورة وفى السينما، ثم فى الإلكترونيات، وكثيراً ما نجد وسائل الإعلام الإلكترونية تسبق الطباعة مثلا، حيث تستطيع تخطى حواجز الأمية.

وتهتم الدول عادة، بإدخال وسائل الإعلام وتطويرها فى المدن أولا ثم نشرها بعد ذلك فى القرى، ولذلك فمن المؤكد فى كثير من البلاد أن نرى الثقافتين الشفوية والإعلامية، تسيران جنبا إلى جنب، وإذا نظرنا إلى هذه المناطق قبل إدخال الوسائل الإعلامية، ثم بعدها لوجدنا فروقاً مذهلة[١١٣].

إن عزلة الريف عن مراكز التحضر ونمط الحياة الاجتماعية والمهنية، وارتفاع نسبة الأمية، وانتشار السكان فى مناطق واسعة، يهيئ ظروفاً معقدة يصعب معها إيصال الخدمات واتساعها ومتابعتها. هذا بالإضافة إلى استحكام التقاليد والاعتقاد بالخرافات والتمسك بالقيم البالية. كل ذلك يجعل الجهود والمحاولات المبذولة لتطوير الأوضاع الاجتماعية، ورفع الكفاية الإنتاجية فى مثل هذه المناطق قليلة الفائدة وذات أثر محدود،

(١١٢) شاهيناز طلعت، ص ٧٤.
(١١٣) المرجع السابق، ص ٧٦.

وهنا يمكن للإذاعة والتليفزيون أن يكون لهما دور فعال لتسيير المعرفة ولتحقيق الكثير من أهداف التطور والتنمية، فباستخدام التليفزيون بصورة خاصة ستتوافر فرص نادرة لإدخال المفاهيم والقيم الجديدة، وسيكون هناك مجال واسع للتعليم والمتابعة. ومن أهم ما تقدمه الإذاعة والتليفزيون مساعدة الفلاح على حل الكثير من مشكلاته وتزويده بالخبرة المهنية وإقناعه باستخدام الآلة وتدريبه على تشغيلها واستغلالها وفق أنسب الطرق لتطوير منتجاته الزراعية وتحسين أحواله المعيشية، ومساعدته على استيعاب الطرق الصحية فى مكافحة الأمراض والوقاية منها، وتزويد المرأة بالمعلومات الخاصة بتدبير المترل والعناية الصحية وتربية الطفل والمهارات المهنية الملائمة، والاهتمام ببرامج تعليم الأطفال وتربيتهم، وهذه وغيرها من موضوعات عديدة لابد أن تلقى الكثير من الاهتمام من سكان الريف(١١٤).

٥- **محو الأمية وتعليم الكبار**: والتنمية الاجتماعية هى المقابل الإيجابى (للتخلف الاجتماعى) هذا التخلف الذى أصبح ينظر إليه على أنه سبب الأمية ونتيجة لها فى الوقت نفسه باعتبارها ظاهرة اجتماعية، وإذا قلنا "أمية" فمعنى هذا افتقاد المصاب بها أهم وأخطر وسائل الاتصال فى العصر الحديث، ذلك أن هناك ملايين فى العصور الوسطى والقديمة كان يمكن أن تمضى بهم الحياة وهم أميين دون خلل ما، لكن هذا مستحيل فى الوقت الراهن الذى وصفناه بأنه عصر "المعلومات".

وتلك النظرة التى ترى فى الأمية سببا للتخلف ونتيجة له، تعنى - ضمن ما تعنى - أن الأمية، كما تكون فى الأفراد، أمية أبجدية، تكون أيضاً فى التكوين الاجتماعى نفسه أمية حضارية، وتعنى حينئذ التخلف الاجتماعى، فى معناه الواسع: علاقات وإنتاجا وارتفاعا، هذه الأمية الحضارية، هى الأمية الكبرى التى تصدر عنها،

(١١٤) عبد الجبار ولى: دور وسائل الاتصال الجماهيرى فى تنمية المجتمع العربى، فى: ماذا يريد التربويون، ج٣، ص ١٥٣.

بالضرورة أمية الأفراد وهى الأمية الأبجدية، التى تعنى جهل مهارات القراءة والكتابة والحساب[١١٥].

ومن هنا كان لابد من المواجهة الشاملة كفلسفة - اجتماعية لمحو الأمية. والمواجهة الشاملة، لا تتم إلا من خلال خطة وظيفية متكاملة، لتطوير المجتمع وتحريك نظمه ومؤسساته جمعياً، على أن يكون تعميم التعليم وإلزامه جزءاً من ذلك التطوير الشامل، وهذا الشمول لا يعنى العمل على كل الجبهات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية وحسب، ولكن يعنى كذلك، المشاركة الجماعية، فيه مشاركة المجتمع المحلى الإقليمى والمركزى، على المستوى الشعبى جنباً إلى جنب على المستوى الرسمى، تخطيطاً وتحويلا، وسعيا ومباشرة ومتابعة[١١٦].

إن هذا يعنى بالتالى أن مؤسسات التعليم النظامى يستحيل أن تقوم بهذا العبء وحدها، وإنما، بالضرورة، وسائل الإعلام، بما لها من انتشار، وما لها من تقنيات متقدمة تيسر سبل التعليم والتعلم، فضلاً عن إمكاناتها الزمنية التى يمكن أن تواجه بها احتياجات ملايين العاملين المنشغلين فى أعمالهم معظم ساعات النهار.

ولابد هنا من وضوح التمييز بين نشاطى محو الأمية وتعليم الكبار فهما ليسا نشاطا واحدا، وإن كان كل أمى، فى الغالب، بيولوجيا، يعتبر كبيراً، فاتته فرصة التعليم فى الطفولة، إلا أن كل كبير ليس أميا بالضرورة، صحيح أن محو الأمية أساس لابد منه لتعليم الكبار، وخطوة سابقة، غير أن تعليم الكبار ليس وقفاً على طلقاء الأمية، ولا يشكل مراحل متابعة متقدمة للأميين وحدهم، فتعليم الكبار عملية مستمرة، وتخدم أشكالاً متعددة من جوانب النشاط التعليمى، فقد يكون تعليما تكميليا لبعض المراحل، وقد يكون تأهيليا، وقد يكون إعدادا جديداً، وقد يكون متابعة ضرورية

(١١٥) محيى الدين صابر، ص ١١٠.
(١١٦) المرجع السابق، ص ١٢.

لفروع التخصص، أو الثقافة العامة، وهو ممارسة يومية لكل إنسان، يكتسب جديداً من خبرة أو فكرة أو علاقة[١١٧].

وفى هذا الشأن أيضاً لابد من إيلاء موضوع تعليم المرأة اهتماماً أكبر، ذلك أن وضعها الحضارى كان من العوامل التى أدت إلى تقليل فرصها فى التعليم، وبالتالى إلى أميتها، أو بعبارة أخرى إلى تكريس تخلفها، وهو أيضاً يقف فى سبيل محو هذه الأمية لأن القيم الاجتماعية المحافظة فى كثير من المجتمعات، وبخاصة فى المجتمعات الريفية، تحول، فى أحيان كثيرة، دون ارتيادها فصول محو الأمية، ليس لمجرد الخروج، فهى تعمل فى الحقل وفى البيت، وتخرج، ولكن لأن للمجتمع المتخلف موقفاً خاصاً من المدرسة، كمؤسسة حديثة لأنها سبيل إلى تحرر أكثر، كذلك فإنه فى أحيان أخرى تحول دونهن ودون ذلك كثرة مسئولياتهن الأسرية.

وهكذا أصبحت الأمية بين النساء أكبر حجماً، وأكبر أثراً. أما أنها أكبر حجماً فهو ما توضحه الأرقام متمثلة فى عدد مدارس البنات، وعدد الطالبات فى التعليم العام فى البلاد العربية، ونسبة تعليم الأولاد إلى تعليم البنات. أما أنها أكبر أثراً، فذلك أن تعليم المرأة يعنى سياسياً واجتماعياً، شيئا أكبر مما يعنيه تعليم الرجل، ذلك أن الرجل له مكانة مقررة فى المجتمع، وبخاصة فى المجتمع المتخلف حتى ولو لم يتعلم، والتعليم يزيد هذه المكانة[١١٨].

أما المرأة فإن التعليم بالنسبة إليها هو الذى يقرر لها مكانتها فى الأساس عن طريق تحريرها من أوضاعها التقليدية، إلى جانب تزويدها بالقدرات التى تمكنها من أداء دورها فى المجتمع وتستكمل بها حقوق المواطنة وتقوم بواجباتها.

٦ – **التربية المدرسية**: فى هذا المجال، لوسائل الإعلام تأثير كبير على كل من التلميذ والمدرس، فمن ناحية التلميذ، فإنها تمد الخدمة التعليمية، وبالتالى، التنمية البشرية إلى أبعد مما تستطيعه المدارس بكثير. فالإرسال يستطيع أن يصل إلى القرى

(١١٧) المرجع السابق، ص ٨٤.
(١١٨) المرجع السابق، ص ١٨١.

والكفور والبوادى حيث لم تصل المدرسة بعد، وبذلك تكون هذه الوسائل من وسائل تحقيق تكافؤ الفرص فى التعليم.

ثم إن وسائل الإعلام تستطيع أن تقدم للتلاميذ موضوعات جديدة حسنة الإعداد حسنة العرض عظيمة التأثير، فحيث يكون موضوع الدرس مكاناً بعيداً أو حادثة ماضية أو مفهوماً مجرداً أو قانوناً علمياً، فإن وسائل الإعلام تستطيع أن تقرب هذا كله وتحسنه وتعرضه بشكل ملموس، أى تستطيع إحياء المادة الميتة وتسهل المادة الصعبة(١١٩).

ومن ناحية المدرس فإن وسائل الإعلام تمده بالفن إذا كان لا يملكه وبطريقة التدريس إذا كان لا يتقنها، وبالمادة العلمية إذا كان لا يعرفها. كل ذلك ببرامج مدروسة عملتها مجموعات متعاونة من كبار العلماء وأفذاذ أصحاب طرق التدريس وأمهر المدرسين، ويصله كل هذا حيث هو جالس مع تلاميذه ولا يبقى عليه إلا التعليق والتشجيع والاختيار والتقويم وإكمال الفجوات بين البرامج أو الموضوعات.

وعن هذين الطريقين يمكن تطوير المناهج وتجربتها وتثبيت ما تتأكد صلاحيته فكأن الأهمية الكبرى لوسائل الإعلام فى التعليم المدرسى هى بكلمة واحدة تطوير المناهج وتحسينها.

والأمر لا يقف عند حد تطوير المناهج، بل يتعداه إلى توفير وسائل تعميمها ونجاحها ولا شك أن مناط هذا النجاح هو المدرسون، ولوسائل الإعلام دور كبير فى اعداد المعلمين وتدريبهم عن طريق عرض أحسن نماذج التدريس أمام أعينهم مما ينتجه أبرع المدرسين وأساتذة التربية وصانعو وسائل الإيضاح والنماذج، وتصبح هذه النماذج عن طريق الراديو والتليفزيون والفيديو وغيرها ملكا مشاعا بين معاهد اعداد المعلمين وورش تدريبهم(١٢٠).

---

(١١٩) أبو الفتوح رضوان، ص ٣٨٤.

(١٢٠) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

الإعلام التربوى:

لقد بقيت المدرسة حتى أوائل هذا القرن - حتى فى المجتمعات الصناعية - المصدر الأول للمعرفة، وبقى معها المدرس (الموزع الشرعى) لهذه المعرفة، واعتمد الفرد نتيجة لذلك على المدرسة مصدرًا لمعرفة العالم ولتنمية قدرته على السيطرة على أنماط من السلوك تمكنه من أن يحتل مكانة فيه. أما اليوم فإن أغلبية المجتمعات تشهد تنافساً مكشوفا أو مستترا بين النظامين التربوى والإعلامى، وهذا التنافس يولد تناقضات، بل صعوبات خطيرة فى عقل الإنسان، فالنظام التربوى يقوم على قيم النظام والطريقة وعلى البرمجة (المقررات المنضبطة)، وعلى المجهود الشخصى والتركيز، وعلى المنافسة، وهو بهذا يتعارض مع نظام الاتصال الذى يهتم بالجديد وبالموضوعات المتعددة ويقدم ما يسهل فهمه، ويعكس الاضطراب فى العالم، وينمى قيم اللذة والمتعة. هذا التناقض مقبول فى الدول الغنية حيث تسود قاعدة البذخ والإسراف، لكنه لا يناسب ظروف الدول النامية، ومع هذا، فإن وسائل الإعلام والاتصال - فى واقعها - إمكانية كبيرة وطاقة ضخمة بغير نظير فى نقل المعارف والمعلومات فى المجتمعات جميعاً[١٢١].

وتتخذ الجهود من أجل التوازن بين التعليم والاتصال أو الإعلام أشكالاً مختلفة، فالبعض ينظر إلى وسائل الإعلام على أنها مصدر للمعرفة المعاصرة، فى حين ينصرف التعليم إلى نقل التراث والتقاليد المتراكمة عبر الأجيال، يبد أن البعض الآخر يتمنى قيام المدرسة بتكريس جهودها لزيادة الوعى الاجتماعى السليم عند الأفراد، وإعدادهم لشغل مناصب مسئولة، وللإسهام فى التنمية الاقتصادية للأمة، فى حين يضع الإعلام نفسه فى خدمة الترويح وملء وقت الفراغ، إلى جانب تشجيع التبادل والتفاهم الدولى. وهناك من يرى أن على المدرسة، مقابل الجلبة والضوضاء التى يثيرها الإعلام، أن تكون ملاذا أمينا يتيح الهدوء والتأمل، والتدريب العقلى والتكامل[١٢٢].

(١٢١) اليونسكو: أصوات متعددة - عالم واحد، فى: ماذا يريد التربويون، ج٣، ص١٦٦.
(١٢٢) المرجع السابق، ص ١٦٧.

ولعل أظهر صورة معاصرة، لتوثيق وتنسيق التعاون بين التعليم والإعلام تلك التى يتجلى فيما أصبح يعرف بـــ (الإعلام التربوى)، وإن كان هناك خلاف حول مفهومه: فهل هو الإعلام عن الجهود التربوية؟ أو بمعنى آخر، هل هو أنشطة العلاقات العامة التى تمارسها أجهزة التربية للإعلام بما تقوم به ولتسويق جهودها؟ أم هو الاستفادة من علوم الاتصال وتقنية الاتصال من أجل الوصول إلى أهداف التربية؟[١٢٣].

الحق أننا نحبذ هذا المعنى الثانى، ذلك أن المعنى الأول أقرب إلى (الدعاية)، أما الثانى فهو أقرب إلى العلمية التى تتجه إلى السعى بكل السبل نحو تحقيق الأهداف التربوية، باستثمار تقنيات الاتصال.

وفى دراسة ميدانية على أجهزة الإعلام التربوى فى دول الخليج كانت أهداف الإعلام التربوى التى وردت فى اجابات المسئولين مرتبة حسب أهميتها المستقاة من تكرار الهدف الواحد منها طبقاً لما يلى:[١٢٤]

١ - غرس القيم والمبادئ والمفاهيم الإسلامية فى نفوس النشء.

٢ - نشر وتعميق الوعى التربوى الوطنى والقومى بين الطلبة والمعلمين.

٣ - التغطية الإعلامية المتوازنة لمختلف جوانب العملية التربوية والتعليمية.

٤ - المساهمة فى حل المشكلات التى تعترض تقدم الحضارة الإنسانية وفى مقدمتها الأمية.

٥ - ربط المؤسسات التعليمية مع مختلف قطاعات المجتمع وخاصة الأسرة.

٦ - تبسيط وتداول المفاهيم التربوية والتعامل معها.

٧ - تنمية قدرات الطلاب الفكرية وتشجيعهم على البحث والاطلاع.

---

(١٢٣) مكتب التربية العربى لدول الخليج، الإعلام التربوى فى دول الخليج العربية، الرياض، ١٩٩٢، ص٤٠.

(١٢٤) المرجع السابق، ص ١٥٦.

٨ - قياس اتجاهات الرأى العام وما تعبر عنه وسائل الإعلام فيما يخص التربية ونقله للمدرسين.

٩ - توثيق العلاقة بين المهتمين بشئون التربية فكرياً وثقافياً.

١٠ - تأكيد احترام العمل اليدوى لدى جميع الطلاب وأهمية التعليم الفنى.

وفى مجال الإعلام التربوى، فإن هناك عدداً من السبل والمسارات التى يمكن الإشارة إليها من خلال ما يلى:-

أ- **التعليم من بعد**: أو التعليم المفتوح، فهذا النوع من التعليم يعتمد بالدرجة الأولى على استغلال تقنيات الاتصال الحديثة للوصول إلى طلاب التعليم حيث هم وخاصة هؤلاء الذين فاتتهم فرصة التعليم النظامى.

وفى الفترة من ٢-١٩٨٦/١١/٦ عقد مكتب التربية العربى لدول الخليج ندوة بالبحرين لمناقشة هذه القضية، وكان من أبرز ما توصلت إليه، أنها مع تقديرها البالغ للنمو المطرد فى مؤسسات التعليم العالى بدول الخليج من حيث أنواعها وأعدادها، والإمكانات الهائلة التى تضعها حكومات المنطقة تحت تصرفها، والتخصصات الدراسية المتوافرة فيها، والمصالح التربوية والثقافية والتنموية والحضارية التى حققتها لمجتمعاتها ولمنطقة الخليج ككل.

فإنها لاحظت أن هذه المؤسسات، على تفاوت بينها من دولة إلى أخرى، لم تستطع حتى الآن أن تستوعب جميع الطلاب والطالبات فيها، إما لزيادة أعدادهم عن طاقتها الإستيعابية فى بعضها، وإما لصعوبة وصولهم إليها لظروف اجتماعية أو جغرافية فى بعضها الآخر. كما لاحظت أن أعداد هؤلاء الطلاب فى تزايد، بحكم النمو السكانى والزيادة المطردة فى أعداد المتخرجين فى التعليم الثانوى بما يفوق القدرات والإمكانات القائمة.

وعلى الرغم من تلك الجهود التى بذلتها دول الخليج لزيادة الطاقة الاستيعابية لمؤسسات التعليم العالى والجامعى لديها، فقد رأت الندوة أن استيعاب هذه الزيادات المطردة فى أعداد الطلاب والوفاء بمتطلبات التنمية لا يمكن تحقيقها بمجرد التوسع فى

المؤسسات التقليدية لهذا التعليم، وانه لا مناص من تعزيز هذه الجهود وتكميلها بتبنى ما يناسب بلدان هذه المنطقة من وسائل التعليم العالى من بعد، التى لجأت إليها بلدان العالم الأخرى لحل المشكلات المماثلة[١٢٥].

وبعد استعراض التجارب العالمية المتنوعة للتعليم العالى من بعد، ومنها الجامعات المفتوحة ومدى نجاحها فى استيعاب ورعاية أعداد هائلة من الطلاب والطالبات لا يمكن احتواؤهم بالأسلوب المتبع فى الجامعات التقليدية،، وبعد التثبت من أن هذه التجارب قد أوضحت المرونة التى تتصف بها أنماط (التعليم العالى من بعد) بما يناسب البيئات الطبيعية والحضارية التى تطبق فيها، مع القلة النسبية فى نفقاتها، والمحافظة على المستوى العلمى الرفيع المفروض توافره فى التعليم العالى والجامعى، فقد أوصت الندوة بما يلى:

- أن تأخذ الدول الأعضاء بالاتجاه العالمى فى تطبيق التعليم العالى من بعد، بحيث يكون معززا أو مكملا لجهود الجامعات ومؤسسات التعليم العالى الحالية وليس بديلاً عنها.
- أن تقوم جامعات الدول الأعضاء بتقديم برامج للدراسات الجامعية المفتوحة فى التخصصات التى تراها مناسبة، وأن تتبع فى ذلك الكيفية التى تراها ملائمة نظروفها بما فى ذلك استخدام وسائل الإذاعة السمعية والبصرية، وافتتاح مراكز التوجيه الدراسى حيثما يلزم وإصدار الكتب والمطبوعات المعدة وفقاً لمتطلبات الدراسة من بعد، وترتيب الاتصالات البريدية وغيرها لمتابعة متطلبات الدارسين واستخدام غيرها من الوسائل المعتمدة من هذا النوع من التعليم [١٢٦].

... وتوصيات أخرى تتعلق بجوانب إجرائية ونقاط متصلة.

وقد تطور مفهوم أقمار الاتصالات منذ نشأتها سنة ١٩٦٢ من مجرد تيسير حركة

---

(١٢٥) مكتب التربية العربى لدول الخليج، وقائع ندوة: التعليم العالى عن بعد، البحرين ٢-١٩٨٦/١١/٦، الرياض ١٩٨٨، ص ٤٨٥.

(١٢٦) المرجع السابق، ص ٤٨٦.

الإتصالات الهاتفية والبرقية والتليفزيونية إلى توفير خدمة تربوية وتثقيفية وتنموية متكاملة لتعويض العجز الراهن فى الشبكات التقليدية التى لا تستطيع الوصول إلى المناطق النائية أو المجتمعات المنعزلة.

وقد كان النجاح الذى حققته الشبكات الفضائية العالمية كالأنتلسات والأنترسبوتنيك حافزاً للأقاليم ذات الأقطار المتجانسة وللأقطار ذات الرقعة المترامية الأطراف، على إنشاء شبكات فضائية إقليمية ومحلية تعمل علىالربط بين أجزائه المختلفة، وتعميق التجانس اللغوى والثقافى والجغرافى والتاريخى والحضارى بين أبناء الإقليم أو الوطن الواحد(١٢٧).

وقد تنبهت الدول النامية، ومن بينها الدول العربية إلى الأبعاد الإعلامية والتربوية والتنموية لأقمار الاتصالات، وعملت على اللحاق بالدول المتقدمة وإقامة شبكاتها الفضائية الإقليمية والمحلية بعد أن أنشأت عديداً من المحطات الأرضية المجهزة للاتصال بالأقمار الصناعية. وتعددت جهود المنظمات العربية فى هذا الاتجاه، وفى مقدمتها اتحاد إذاعات الدول العربية، واتحاد المواصلات العربى، والمنظمة العربية للتربية الثقافية والعلوم، حتى كللت ١٩٧٧ بقيام المؤسسة العربية للاتصالات التى استطاعت بالفعل أن تطلق القمر الصناعى العربى (عربسات).

فإذا ما أردنا الكشف عن إمكانات الشبكة الفضائية التى يمكن عن طريقها إفادة التعليم العربى، فسوف نجد أنها تستطيع:(١٢٨)

- نقل المحاضرات العلمية المهمة التى تلقى فى جامعة من الجامعات إلى الجامعات العربية الأخرى.
- نقل بعض العمليات الجراحية المهمة ليستفيد منها الطلبة فى الجامعات العربية.
- نقل وقائع مؤتمرات علمية أو ثقافية مهمة.

---

(١٢٧) ليلى العقاد: نحو جامعة عربية مفتوحة عبر الشبكة الفضائية العربية، اتحاد الإذاعات العربية، ١٩٨٠، ص ٣٣٨.

(١٢٨) المرجع السابق، ص ٣٤٧.

- تبادل المعلومات، مثل البحوث والتجارب العلمية المهمة.
- نقل نشاطات الطلبة مثل المباريات الرياضية والندوات الطلابية.
- نقل المحاضرات فى الجامعات ذات الأعداد الكبيرة من الطلاب.
- نقل المعلومات الهامة التى تخص المكتبات والمراجع العلمية.
- نقل المحاضرات التى يستفاد منها فى عملية التعليم المستمر والجامعات المفتوحة.
- تسجيل المحاضرات على شريط تليفزيونى (فيديو) يمكن إرسال نسخ منه إلى الجامعات لإذاعته فى دوائر مغلقة أو إذاعته عن طريق الشبكة الفضائية.
- أن تنقل الشبكة الفضائية العربية من الشبكات الفضائية الأجنبية بعض المحاضرات العلمية والعمليات الجراحية المهمة ووقائع بعض المؤتمرات الثقافية لكى تستفيد منها الجامعات العربية.

وقد شهدت بلدان عدة تجارب ضخمة للاستفادة من تقنيات الإعلام لتوصيل الخدمة التعليمية إلى الألوف من الراغبين فيها، من ذلك، جامعة الهواء فى اليابان، وكذلك شهدت اليابان ظهور المعهد القومى لوسائل الاتصال التربوية المتعددة.

National Institute of Multi Media Education

كذلك المركز القومى لتنمية الإذاعة (المسموعة والمرئية) التربوية.

National Center for the Development of Educational Broadcasting

وذلك سنة ١٩٧٨ [١٢٩].

وكذلك بلدان أخرى مثل الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، وتركيا وغيرها[١٣٠].

---

(١٢٩) إبراهيم محمد إبراهيم: جامعة الهواء فى اليابان، القاهرة، عالم الكتب، سلسلة قضايا تربوية ١٩٩١، صفحات متفرقة.

(١٣٠) سلمان الداود الصباح وزهير منصور الزبيدى: الجامعات المفتوحة فى العالم، فى الكويت، وفى دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، الكويت، مؤسسة الكويت للتقدم العلمى، ١٩٨٨، صفحات متفرقة.

ب- **الإذاعة المدرسية**: وقد يرى البعض أن اعتماد الإذاعة على حاسة السمع فقط يعتبر نوعاً من القصور، وهذا قد يكون صحيحاً من الناحية الشكلية وخصوصاً أن مستمع الراديو محروم من سحر الصورة (التليفزيونية)، ومحروم من الديكور فى السينما والحركة، ومحروم من الإضاءة فى المسرح.. إلخ، لكن الراديو من الناحية العملية والموضوعية يعوض كل هذا النقص من خلال اعتماده على قدرة خصبة وغير محدودة وهى القدرة على التخيل عند المستمع، وهنا يكمن امتياز الراديو لا قصوره، لأن العناصر المرئية تجسد كل شىء أمام المستقبل، وتحد من انطلاق تخيله بينما الراديو مسرحه فى ذهن المستمع ليتخيل المكان والأشخاص مما يجعل هذا المستمع أكثر تأثراً بما يقال وأكثر استيعابا له. إن خيال المستمع الخصب إمكانية هائلة فى يد الراديو تسهل من مهمته وتجعله أكثر تأثيراً فى المستمع[١٣١].

والإذاعة التى تنشأ فى المدارس يمكن أن تلعب دوراً فى خدمة العملية التعليمية من خلال العديد من المهام، منها:[١٣٢]

- تسهيل اتصال إدارة المدرسة بالمعلمين وإبلاغهم التعليمات والقرارات الخاصة بحسن سير العملية التعليمية، وإن كان هذا كثيرا ما يتم من خلال المطبوعات والاتصال الشخصى بين إدارة المدرسة، وهؤلاء المعلمين.
- الإذاعة المدرسية تعتبر أداة أساسية تستخدمها المدرسة فى تنظيم فقرات اليوم المدرسى وخاصة فى طوابير الصباح والفسح، والاستعراضات المدرسية التى تقام للطلاب وخاصة طلاب المدارس الثانوية العسكرية الداخلية والخارجية.
- من الممكن أن تساعد الإذاعة المدرسية فى الإثراء الثقافى بالمجتمع المدرسى من خلال تقديم الإنتاج الثقافى الجيد للعناصر الطلابية التى تتمتع بموهبة مميزة فى المجالات الثقافية المختلفة.

---

(١٣١) ماجى الحلوانى، ص ٥٢.

(١٣٢) المرجع السابق، ص ٥٥.

- الإذاعة المدرسية أداة اتصال أساسية فى الأوقات ذات الطبيعة الخاصة مثل بداية وانتهاء أوقات العمل والصلاة.

ج- **الصحافة التربوية**: ونذكر منها (المجلات التربوية) وهى مجلات متخصصة للمعلمين لتطلعهم على الجديد من أصول مهنة التعليم وأسرارها، ولتكون مجالا يتناول فيه المعلمون الرأى فى أمور مهنتهم، وليوحدوا رأيا مهنياً عاماً بين رجال التعليم عن طريق هذه المجلات. وتنبع ضرورة المجلات التربوية من مجموعة اعتبارات أهمها: الثورة المتجددة باستمرار فى تكنولوجيا التعليم والتغير السريع فى طرق الحياة فكراً وإحساساً وسلوكاً، الأمر الذى يتطلب أن يكون رجال التربية والتعليم على علم مستمر بهذه الاعتبارات حتى يمكن أن يكون المجال التعليمى والتربوى قائد الحياة والمجتمع إلى الأفضل[١٣٣].

ومن أهم المجلات التربوية فى الوطن العربى:

- المجلات التى تصدرها كليات التربية فى الدول العربية.
- دراسات تربوية، رابطة التربية الحديثة بالقاهرة.*
- التربية الجديدة، مكتب اليونسكو الإقليمى للتربية فى البلاد العربية.
- ما تصدره إدارة التربية بالمنظمة العربية للتربية والثقافية والعلوم.
- المجلات التى تصدرها الجمعيات التربوية والنفسية.
- رسالة الخليج، مكتب التربية العربى لدول الخليج.. إلخ وهناك كذلك المجلات المدرسية، وهى تهدف عادة إلى: [١٣٤]

- التغطية الإخبارية الجيدة للأنشطة المختلفة داخل المدرسة، سواء الأنشطة الثقافية أو الاجتماعية أو الرياضية أو نحوها، وكذلك الأحداث والتطورات التى تقع فى المدرسة سواء من حيث العلاقات والأمور الداخلية فيها أو من حيث علاقاتها الخارجية.

---

(١٣٣) أميل فهمى: الاتصال التربوى، القاهرة، الأنجلو المصرية، ١٩٧٦، ص ٣٩.

(*) توقفت بنهاية عام ١٩٩٥.

(١٣٤) المرجع السابق، ص ٤١.

- خلق روح التعاون والمحبة بين المعلمين فى المدرسة وتشجيع الجو الأسرى بينهم وتدعيم روح الولاء والانتماء فى نفوس المعلمين والطلبة للمدرسة والنقابة والمجال التعليمى والتربوى عموما والاعتزاز به.
- خلق روح التعاون والتفانى بين المعلمين وإدارة المدرسة لحسن سير العملية التربوية والارتفاع بمستواها من النواحى المختلفة والتغلب على المشكلات التى تعترض ذلك من خلال الرأى والمشورة ونشر الاقتراحات والآراء التى تحقق هذا الهدف.

د- **التليفزيون التعليمى**: فضلاً عما سبق أن ذكرناه فى مواقع عدة فلقد وضح أنه عن طريق التليفزيون يمكن أن تنتقل خبرة القلة من المدرسين والأساتذة الممتازين إلى الكثرة من صنوف التلاميذ والطلاب فى المراحل التعليمية المختلفة. وعن طريقه أيضا يمكن أن تعم فائدة استخدام الوسائل والأدوات التى لا تتوافر فى كل حجرات الدراسة وذلك بحسن عرضها وتوضيح عملها على شاشة التليفزيون فى ضوء ميزاته التالية:

- أن التليفزيون يقدم مادة جديدة شيقة تربوية بما يتوافر لإعدادها على أحسن وجه من وقت طويل نسبياً، بينما يعجز مدرس الفصل عن إعطاء نفس الوقت للتحضير والإعداد لانشغاله بالتدريس ساعات طويلة علاوة على مسئولياته فى تصحيح كراسات التلاميذ، هذا بالإضافة إلى ما يتوافر لدرس التليفزيون من إمكانات مادية من وسائل وأدوات تعليمية، وإمكانات بشرية من أساتذة ومتخصصين وفنيين فى أسلوب الاتصال التليفزيونى لا تتوافر للدرس العادى. ومن هنا تظهر ميزة أخرى للبرامج التليفزيونية التعليمية فهى تقدم مادة تعليمية حديثة شيقة تربوية، يستفيد منها التلميذ، ويتعلم منها المدرس أساليب متطورة فى التدريس.
- إن البرامج التعليمية المنهجية ترفع عبء عرض الدرس عن المدرس فى المدرسة،

(١٣٥) فتح الباب عبد الحليم وزميله، ص ٢٨٩.

فيصرف وقته فى أداء مهام تعليمية أخرى مثل مراعاة الفروق الفردية بين التلاميذ، والتقويم، والمتابعة.

- إن البرامج التعليمية المعدة إعدادا طيبا، تجذب اهتمام بعض الجماهير بوجه عام لمشاهدتها، وهى بذلك ترفع مستواها الثقافى، وإن الطلاب يتعلمون من مشاهدة البرامج التعليمية كجزء من الخطة التعليمية التى ينظمها المدرس أصول المشاهدة الواعية، والمشاهدة الواعية مهارة لازمة لحسن تفاعل المواطنين مع برامج التليفزيون العامة تفاعلا ذكيا مثمرا. وإن الناس بعامة يتعلمون من مشاهدة البرامج التعليمية أن التليفزيون ليس أداة ترفيه فحسب، ومن ثم يقبلون على مشاهدة برامجه الجادة، ولا شك أن تنمية رغبة المواطنين فى مشاهدة البرامج الجادة أمر ضرورى يضيف إلى وسائل الإعلام دورا جديدا كمصدر لترقية المجتمع.

وفى نهاية هذه الدراسة يتبين لنا كم كان عسيرا على كاتبها أن يوفيها حقها من حيث تغطية جوانبها الأساسية، "فالتعليم والإعلام" ليس مجرد "موضوع" ولكنه "مجال" يحتاج إلى عشرات البحوث والدراسات لا نقول ذلك اعتذارا عن تقصير قد يلمسه القارئ، وإنما إقرارا بحقيقة، وحثا لآخرين أن يشاركوا فى استكمال الصورة.